



تشرين ١ - كانون ١٩٣٥

العدد الثالث والثلاثون

في الطقوس المارونية

بقلم المحوري ميخائيل الرجعي

تمهيد

تقرأ في مرثقات البعض من أهل القرب أن الموارنة لا طقس لهم
 خصوصاً بهم . فهم إنما يحجرون ، في إقامة نروض العبادة الالهية ،
 على غرائب الكنيسة الرومانية . وقد بدأوا بتقليدها في زمن الحروب
 الصليبية ، من عهد البابا زنجيا الثالث . ثم تأصلت عندهم ، بعد تأسيس المدرسة
 المارونية في رومية ، في آخر القرن السادس عشر . وما هي كتبهم حافلة بما
 يدل على نسبتها الى الطقس اللاتيني .

ومن المؤلفين ، غربيين وشرقيين ، من لا يذهبون الى هذا الحد الاقصى .
 فيعرفون بان بعض الرتب اللاتينية قد تسربت الى الكنيسة المارونية . غير ان
 هذه الكنيسة لا تزال ، في مجمل طقوسها ، شرقية سرمانية . فان هي الا

فرع من فروع الكنيسة الانطاكية السريانية ، يوتف اتباعها ، مع اليعاقبة والملكيين ، من يسونهم السريان المطاربة ، بالمقابلة مع السريان المشاركة اي النساطرة ومن اليهم من الملايار . ولهذا ، فان اختلفت في المعتقد مع جيرانها ، فهي تتفق معهم في الطقس . فللموارنة واليعاقبة ، وكذلك للملكيين الاولين ، طقس واحد في الاصل ، كان ولا يزال في جوهره واحداً ، وان اختلف فقط في امور عرضية باختلاف هذه الطوائف .

ولم نجد مؤلفاً واحداً ينسب الى الموارنة طقساً خاصاً بهم يتمازرون به عن اليعاقبة وسائر السريان ، فضلاً عن اللاتين . على اننا قد نوفق ، بعون الله تعالى ، في هذا المقال ، الى الدلالة على أن للموارنة طقساً مارونياً ، لا يعقوبياً ولا لاتينياً . وهو يقرم بصلوات مختلفة عن صلوات الطقوس الاخرى . واهم من ذلك ان له سياقاً ونظاماً ، في اقامة الصلوات ، يختلف به عن سواه . ومن ثم كانت رتبته وخدمته وقروضه ، بإدتها اي بصلواتها ، وبصورتها اي بسياق هذه الصلوات ، قائمة بذاتها ، ذات اسلوب يميزها عن سواها او كيان خاص بها ، مستقلة عما يتباينها في بقية الطقوس المسيحية .

ولا مشاحة في ان اشياء كثيرة وهامة قد تسربت الى الطقس الماروني من عوائد الكنيسة الرومانية ، خامة في القرنين السابع عشر والثامن عشر . وان اشياء كثيرة وهامة كذلك كانت قد تسربت اليه قبل ذلك من الطقس اليعقوبي . اكن هذه الاشياء . لم تفقد جوهر الطقس ، وان تكن قد حجبتة ؛ ولم تدخل فيه ، ما عدا القليل منها ، بطريقة شرعية . بل مانع الرؤساء في بعضها ممانعة عنيفة ، وانكروا البعض الآخر . وجرب البطريرك العظيم والعالم الكبير اسطفان الدويهي ان يعود بالطقس الى سلامته الاصلية . وعقبه المجمع اللبناني المقدس فالمخ آباره الى شروط الاصلاح الطقسي ، على قدر ما لاح لهم منها ، وكان بامكنهم تقرير اجرائها .

وسيناً في الوصول الى غايتنا ، بعد تبيان ما دخل الطقس من عناصر اجنبية ، شرقية وغربية ، يعقوبية ولاتينية ، ان نبث المخطوطات القديمة من مدافنها ، ونفتخ فيها روحاً جديدة : نسالها فتجيبنا ، نصغي اليها فنسمع صدى

اصوات اجدادنا ومعلمينا المودعة فيها ، نمدق اليها تارةً ونشخص اخرى فتظهر لنا حقيقة امرها مجردة واضحة .

العهد اليقوي

بدون عناء ، يدرك الباحث أن من المخطوطات التي سلبت من ايدي الحدائق فصانتها لنا خزائن الكتب الخاصة والعامة ، شرقاً وغرباً ، ما لا ريب في صحة نسبه الى الموارنة . ومخطوطات اخرى ، ان جاز الشك في نسبتها اليهم ، فلا نكير في انها كتبت في بلادهم ووجدت في اديرتهم ، وقد يكون استخدامها قد جرى في كتابتهم .

على ان ما يجب الالتفات اليه أن هذه المخطوطات ، على علاتها ، قلما ترجع بيهدها الى ما قبل القرن السادس عشر . وهي تكثر شيئاً فشيئاً ، كلما اقتربت من القرون اللاحقة . والقليل القليل منها يعود الى القرن الخامس عشر . اما ما كان منها من الرابع عشر ، فقد لا يتجاوز اصابع اليدين عدداً . وهيئات ما هو منها قبل هذا القرن .

وبدون عناء ، يعرف المطلعون ان القرن الخامس عشر كاد يكون في لبنان ، وعلى الاخص في شاليه ، في جبة شراي ، مطبوعاً بطابع اليقوية . فالقليل الذي ذكره مؤرخو الموارنة ، عن امامهم الدويهي ، في هذا الصدد ، يدلنا على انتشار اليقوية انتشاراً واسعاً في هذه الناحية المارونية ، وعلى شدة تأثيرها حتى انجدع بعض الموارنة هناك بها .

كان حكام الجبة في هذا القرن ، وفي القسم الاول من القرن التالي ، المقدمون يعقوب بن ايوب وسليته . وبمنايتهم وفضاهم ، « استتب الراحة ، وكثر العمران ، وأُنشئت الكتائف والمدارس ... ومن كانوا من النساخ في ذلك العصر ... ينفون على مئة وعشرة ناسخ »^١ . ولهذا الاسباب ام لبنان كثيرون من البلاد البعيدة للسكنى فيه . وكان في جملتهم عدد من اليعاقبة .

١ عن الدويهي في الدبس: الجامع التمسّل في تاريخ الموارنة المرسل ، بيروت ، سنة

جاؤوا من عين حليا ، ومن صدد الشرق ، ومن نابلس ، ومن القدس ، حتى من الحبشة^(١) . وكان منهم بدون شك رهبان علماء ، وتجار اغنياء ، فأخذوا رويداً رويداً يسيطرون في محيطهم ، وهو على الأرجح دونهم علماً وثروة ، حتى توصلوا الى اغواء المقدم عبدالنعم ، فناصرهم جهراً وتهدد من يقاومهم^(٢) . وكان بطاركة الموارنة ، حتى اوائل القرن الخامس عشر ، لا يزالون يقيمون في اديرة بلاد جيل ، في يانوح ار في وادي ايليج وما اليها^(٣) ، بالرغم من ان بعضهم ، كالبطاركة الحديثين ، كانوا من جبة بشرآي . فاستجذبهم عندئذ ما كان في الجبة من عمران وامن بواسطة المقدمين ، فانتقلوا الى دير قنوين^(٤) . وقد يكون الدافع لهم كذلك ، في رأينا الضيف ، ان يكونوا على مقربة من اليعاقبة ليكسروا شوكتهم ، ويخلصوا البلاد والطائفة من شرهم .

ويحملنا على هذا التقدير ما زاه من ان البطريرك بطرس الحدي ، وهو الثالث في قنوين ، ارسل ينهائهم عن طغيانهم ، فكان لهم من حماية مقدم بشرآي ما جرأهم على عدم الاقياد له . فاتفق البطريرك مع اهل اهدن ، وسام مطراناً منهم ولأه على دير الاحباش في اهدن . فمظن الامر على هولاء ، ففزعوا الى حدشيت محتمين بتقدم بشرآي وبشدياق حدشيت . فاستنجد هذان برجال الضية على اهل اهدن . وكان ما كان من فتك الاهديين بهم فتكاً ذريعاً . فتكب اليعاقبة بذلك ، وهربوا من جبة بشرآي ، وتشتوا ايدي سبا . وكانت نكبتهم هذه سنة ١٤٨٨^(٥) .

على ان تأثير اليعقوبية كان قد تأصل عند الموارنة ، فبلغ حداً جعل البعض يزعمون ان الموارنة فرقة من اليعاقبة . فقام ابن القلاعي يفند زعمهم في كتابه الموسوم « مارون الطوباوي »^(٦) . وما يدمش شديد الدهش ان البطريرك ميخائيل

(١) الدبس ثم ، ص ٢٤٧ .

(٢) الدبس ثم ، ص ٢٤٨ .

(٣) الدبس ثم ، ص ٢٠٠-٢٠٧ .

(٤) الدبس ثم ، ص ٢٥١ .

(٥) الدبس ثم ، ص ٢٤٨-٢٤٩ .

(٦) ذكره الدبس ثم ، ص ٢٤٩ و٢١٠ .

الرزقي (١٥٦٧-١٥٨١)، قد اضطره بعض الخصوم الى المدافعة عن نفسه، تجاه الكرسى الرسولي المقدس، أنه ليس يعقوبياً، ولا من اصل يعقوبي^١. وكان هذا، كما ترى، بمد نكبة اليعاقبة بما يقرب من قرن كامل.

وإذا كان التأثير اليعقوبي قد بلغ هذا المبلغ عند الموارنة مدة قرنين، فلا غرابة ان يكون قد ترك آثاراً جمة في الطقس، فاليعاقبة، وبينهم رهبان علماء، قد غمروا الاديرة والكنائس، بل البلاد كلها، بخطوطانهم الطقسية وغيرها، ونتاجهم اخذوا يخطون الكتب لحساب الموارنة. وهؤلاء، قد نخب بعضهم بظواهر العلم والفن والجاه التي كانت لضيوفهم اليعاقبة، فاهملوا كتبهم العتيقة، واخذوا باقتناء هذه الجديدة، وبالنسج على منوالها، وبالنتيجة باستعمالها. ذكرنا لذلك في كتاب رحلة الاب دنديني القاصد الرسولي الى الموارنة، حيث قال في آخر الفصل الثامن عشر: «ان الكتب الفاسدة الزديشة منتشرة جداً ما بينهم (الموارنة)، لانها ليست محرمة. ومنها مؤلفات للنساطرة واليعاقبة وتباع ديوسقوروس وغيرهم من اصحاب البدع، الذين يقينون مسا بينهم ويشرون كتبهم بندهاء وعناية، فيحوزها هؤلاء بدون الانتباه الى ما تتضمنه من ضلال. وقد اخبرني بعضهم ان اليعاقبة ادخلوا من كتبهم الى بلاد الموارنة، من زمن ليس بعيد، ما يقارب خمسين حمل بفل.^٢»

ولما كانت المخطوطات التي سيناها مارونية، على ما سر، اما لاستعمالها في كنائس الموارنة واما لكتابتها في بلادهم وحفظها في خزائنهم، يرجع اغلبها الى هذين القرنين الخامس عشر والسادس عشر، المطبوعين بطابع اليعقوبية، فلا غرو ان يكون قد اعتورتها اشياء واشياء من طقس اليعاقبة بمعتقدهم، بحيث يتحتم على الناقد البصير ألا يركن اليها تمام الركون انها شواهد عدل على

(١) في الدبس ثم، ص ٢٩٠

(٢) دنديني: *Missione Apostolica al Patriarca et Maroniti del Monte Libano*, Casena, 1656. وقد ترجمه ريشاربيون الى الفرنسية. - *Voyage au mont Liban*, du R. P. Jérôme Dandini. Paris, 1675. وعربه الحوري يوسف بزبك الميثقي وطبعه في بيت شباب، لبنان، سنة ١٩٣٣.

معتقد الموارنة وطقوسهم ؛ بل ان يفرغها من سمينها ، يعقوبها من مارونيا ؛ ويحصها حتى تنبت مما قد خالطها ومازجها ، ولا يفتأ يماجلها حتى تنجلي الرغبة عن الصريح .

هذا ما جاهر به الموارنة المجتمعون بحضرة الاب دنديني المشار اليه . فلما كان يعترض على صحة معتقدهم ببعض اغلاط ذكرتها كتبهم ، كانوا يجيئون منكرين نسبة هذه الكتب اليهم ، ومؤكدين انها للياقبة الذين كانوا ينشرونها بدعاهم . ومكر ما بين ابنا الطائفة ، وهي تختلف اختلافاً يفتأ عن كتبهم^(١) .

وهذا ما كان قد كتبه قبل ذلك البطريرك ميخائيل الرزي الى الكردينال كرافا سنة ١٥٧٨ : « اذا كان في بعض النسخ شي . يخالف ذلك (معتقد الكنيسة المقدسية) ، فقد ادخله المراهقة المحدثون بنا على تلك الكتب من زمان طويل . »^(٢)

وكما انه لا يصح اتخاذ هذه الكتب قاعدة لايمان الموارنة ، كذلك لا يصح اعتبارها جامعة لطقوسهم ورتبهم . فبعض الكتب الطقسية ، المصدرة باسما ائمة الياقبة ، مثل ساويرا وبرصوما وامثالهما ، والحافلة بالرتب المنسوبة اليهم ، ليست مارونية ، بل يعقوبية موسومة بطابع ائمة الياقبة ، وهي هي تنادي ببعقوبيتها . فلا يجوز اعتبارها مارونية ، ولو وجدت بين ايدي الموارنة^(٣) او طبعت لاستعمال الموارنة^(٤) . فوجودها نتيجة ما سبقنا . فقلنا . وطبعا ثمة

(١) دنديني . في عشيتي ، ص ٨٢ .

(٢) ذكره الدبس ثم ، ص ٢٩٣ .

(٣) لا تخلو خزائنه الكرسي البطريركي من امثال هذه الكتب ، حتى يومنا هذا . من ذلك المخطوط عدد ٩٧ المحتوي على رتبة عماد يتنوية منسوبة لساويرا . وقد خطه سنة ١٨٦٢ يونانية (١٥٥١ م) . جرجس شاس من ادنيت للنس منه ايضاً وفقاً لما ذكره . وقد شطب فيه اسم ساويرا وصححت بعض عباراته في المتن وعلى الهامش ، وصححت صورة الهاد والثبيت الخ قصد تقريبها من الرتبة المارونية .

(٤) من ذلك كتاب القداس الذي طبع في رومية سنة ١٥٩٢-١٥٩٤ . فان مجموعة النوافير المطبوعة فيه تحتوي على بعض نوافير منسوبة الى ائمة الياقبة : كالبطريرك يوحنا بن

التسرع في العمل ، والجهل باصول الطقس والعلم ، ليس الا . وما على الموارنة في ذلك من حرج^(١) .

ولو اهدى بنور هذه المبادئ من كلفوا بفحص شؤون الموارنة من القديم ، وكذلك من عنوا انفسهم بتخطئة الموارنة وتزويد صفحة ايمانهم النقية ، لكانوا كفوا انفسهم والموارنة والتاريخ مؤونة ما رددوه واودعوه كتبهم من تهجمات باطلة استقوها من هذا الينبوع المسموم او المورث ، اعني ينبوع المخطوطات اليقويية او المتأثرة باليقويية .

وكما يؤخذ الاجانب عن الطائفة في صدد نسبة معتقد اليعاقبة الينا ، يؤخذ ابناء الطائفة انفسهم ، وخاصة العلماء منهم ، في خلطهم بين كتب الطائفتين وطقوسهما ، وفي عدم تمييز الماروني من اليقويي ، وفي اعتقادهم ان للطائفتين طقساً واحداً .

وقد قرأنا لبعضهم عبارات مدهشة في هذا الصدد ، لا بأس بايراد ما يقين لنا الوصول اليه منها . كتب العلامة جبرائيل الصهريوني سنة ١٦٤٤ الى العلامة نيكوسوس ، في مرض الكلام عن كتاب القديس والتواخير ، ان التواخير مشتركة بين الموارنة واليعاقبة : « لان الكتب الكنيسية هي واحدة الموارنة واليعاقبة . »^(٢) وقد ذهب العلامة انطون عواد السماي في كتابه : « لائحة المخطوطات الشرقية في المكتبة المديشية بفلورنسة » ، الى حد انه وضع العنوان التالي لاحد المخطوطات : « كتاب القديس الرماني بحسب طقس الكنيسة الانطاكية للريان اليعاقبة والموارنة »^(٣) . والسماي الكبير كتب ، تعليقاً على رتبة سر الزواج المدرجة في المخطوط الفاتيكانى عدد ٢٤٢ ، هذه العبارة : « ان الريان ، الموارنة منهم واليعاقبة ، يستعملون في خدمة الاسرار طقساً

شوشان ومن الراعي وغيرها . وفي نافورة مار جنوب يذكر في تذكارات القديسين برصوما
اس ١٦٨) ويبيد ذكره في المتام (ص ٢٤٥)

(١) انظر بيان البطريرك سركيس الرزي امام دنديني في الدبس ثم ، ص ٢٤٨

(٢) ذكره الاب ديب في كتابه *Etudes sur la Liturgie Maronite*. Paris, 1919. ص ٤٠

(٣) ذكره ديب ثم ، ص ٤٠

واحدًا تقريباً . «^١ والى الآن ، اذا تحدثت الى اهل المعرفة والاطلاع في الطائفة بهذا الموضوع ، اجابوك فوراً : اننا الموارنة قد اختلفنا مع السريان الآخرين في المعتقد فانفصلوا عنا ، لكن الطقس ظلّ مشتركاً بيننا .

ولما كان هذا ما يعترف به الموارنة بكل هذه الصراحة ، فاحر بنواهم من السريان ان يتادوا به . قال المطران يوسف داود ، السرياني الكاثوليكي ، ما نصه : « كانت الكلب الطقسية للطائفتين (اليعاقة والموارنة) واحدة ولاسيا كتب توزيع الاسرار ، كما هو معلوم ولا حاجة الى بيان » «^٢ وكذلك : « من غرائب ما نراه في الشيعة المارونية القديمة انها مع كونها اتخذت في طقسها جميع ما عند اليعاقة تقريباً . . . »^٣ .

قلنا كان الاحرى بعلما الموارنة ان يأخذوا بقول ابن القلاعي ان الموارنة ليسوا فرقة من اليعاقبية ، وبيان البطريك سركيس الرزي ان في الطائفة كتباً اخضرها فاطلع عليها القاصد الرسولي ايرونيوس دنديني ، وكان قد قدمها قبلاً بيده للقاصد الاخر الذي سبقه اي يوحنا المسمدان اليانوفظهر ان الاغلاط التي اشار اليها يوحنا المسمدان لم تكن في كتب الموارنة بل في كتب اليعاقة ، حتى تعجب الاب دنديني واقر ان ما اتهم به الموارنة القصاد الرسوليون هو تجنن عليهم^٤ . فهم لو فعلوا لكأنوا قد اهتموا الى كتب الموارنة « التي تختلف اختلافاً بيناً عن كتب اليعاقة »^٥ ، ولكانوا حفظوا لنا هذه الكتب النفيسة . ولا شك في ان منها كتباً طقسية تختلف كذلك عن كتب اليعاقة في صلواتها ، وفي سياق هذه الصلوات . كالكتب النادرة التي توفقتنا الى الاطلاع عليها والتي سنتكلم عنها ، ان شاء الله .

وقد ساعد الموارنة على الوقوع في هذا الخلط بما عمله بعض القداما منهم . فانهم اذ رأوا نعر الطائفة ، بالنسبة الى اليعاقة ، في المؤلفات الطقسية والقانونية ،

(١) السماي :لائحة الكلب السريانية في المكتبة الرائيكانية ، رومية ١٢٥٩ ، ص ٥٢٢

(٢) كتاب جامع الحجج الراهنة في ابطال دعاوي الموارنة . مصر سنة ١٩٠٨ ، ص ٧٤

(٣) الكتاب نف ، ص ٤٠٢

(٤) الدبس تم ، ص ٢٦٨

(٥) في دنديني ، عمشقي ، ص ٨٢

فضلاً عن سواها ، اخذوا عن هزلا . بعض كتبهم كالناموس لابن البسال ، وكتاب شرح الليترجية لابن الصليبي ، وناפורات اليعاقبة ، وغير ذلك ، وحوورها قليلاً على موجب بعض عاداتهم وطقوسهم ، ونسبوا الى علمائهم الاقدمين . ولما كانت هذه الكتب تحثري على طقس اليعاقبة ليس غير ، فقد ظن الموارنة بعدئذ ان للطائفتين طقساً واحداً . ويا ليتهم اكتفوا بالتليل الذي كان لديهم من كتبهم الصحيحة التي لا شبهة عليها وقنعوا به : فالقناعة غني . وهذا الفرق في الكتب الكنسية دفع بعض الموارنة الى المخاطاة عن بعض ائمة اليعاقبة كالسروجي والرهاوي ، واجهاد النفس في تبيان كونهم ارثوذكسين كاثوليكين . ذلك لكي يتمكنوا من الاستمانة بؤلفاتهم . وما كان اغنام عن ذلك ا

المهرم اللاتيني

تجاه هذه الحالة ، وقد تسرب الطقس اليعقوبي الى الكنييسة المارونية ، فكان سبباً لاتهم الموارنة ، لدى الكرسي الرسولي المقدس ، باتباع ضلال اليعاقبة ، كان لا بد من القيام بالاصلاح الواجب .
قلنا فيما سبق ان هذه الغاية قد تكون بعض ما حدا بالبطاركة الى التزوج من وادي ايليج الى دير قنوبين في وادي قديشا . وقد رأينا البطريرك ميخائيل الرزي ، وخلفه شقيقه البطريرك سركيس ، يتنصلان من تهمة اليعاقبية ، ويبينان الاختلاف البين الموجود بين كتب اليعاقبة وكتب الموارنة ، فيتنع بذلك الاب دنديني ، القاعد الرسولي ، فيصرح « ان الكتب المارونية الحقيقية هي كاثوليكية صرفة ، لا غبار عليها ولا يشتم منها رائحة الضلال . »^{١١}
ومنذ ذلك الحين اخذ البطاركة يسعون في ان يتلقى بعض الموارنة العلوم الكافية ويحصلوا المعارف الوافية ، ليتقوا معهم في وجه التيار اليعقوبي ، ويساعدوهم في الاصلاح المنشود . فولوا ووجههم شطر التوب ، ورغبوا في استقاء العلوم من منهل الكنييسة الرومانية ، ام جميع الكنائس ومعآسن .

وقد ذكر الدويهي ان اول من فكر في ذلك البطريرك سمعان بن حسان الحديثي، فارسل الى رومية ، سنة ١٥١٥ ، كاهناً وراهبين ليطلموا اللاتينية وبقبورا العلوم^(١) . وسنة ١٥١٢ ، كتب البطريرك موسى المكاربي الى البابا بولس الثالث يأله ان يوغز الى رهبان القديس فرنسيس بارسال ستة كهنة لينشروا مدرسة بلبنان لتعليم بعض الشبان المواطنة اللغة اللاتينية^(٢) . سنة ١٥٢٧ ، زار المواطنة من قبل الكرسي الرسولي الاب يوحنا المعدان اليانو فأطلع على امورهم وطلب من الحبر الاعظم، غريغوريوس الثالث عشر ، في جملة ما طلب، ان تُنشأ مدرسة في رومية يتأهب فيها المواطنة الى قبول الدرجات المقدسة^(٣) . نتنازل قداسه الى اجابة الطلب واسس المدرسة الحبرية المارونية الشهيرة في رومية سنة ١٥٨٤^(٤) . وقد اقام البطريرك يوحنا-مخولف مدرسة في دير سيدة حرقا في وادي قديس، سنة ١٦٢٤، يتعلم فيها الشبان العلوم الاكليريكية، حتى اذا نبغ احد منهم ، وفاق اقاربه، ارسل الى المدرسة الرومانية^(٥) .

وفي الوقت نفسه ، استرعت انتباه الجميع حاجة الطائفة القسوى الى طبع الكتب ، خالية من الغناص والشوائب والمفاسد . فاقترح الاب اليانو السابق ذكره على قداسة البابا غريغوريوس الثالث عشر انشاء مطبعة سريرية وعربية لفائدة المواطنة في رومية . فتم الامر ، وطبعت بعض الكتب الروحية سنة ١٥٨٠ ، والطبعية كالتريسة اي كتاب الجنائز سنة ١٥٨٥ ، وكتاب القداس سنة ١٥٩٤^(٦) . وتوالى طبع الكتب الطقسية في مطبعة المجمع المقدس في السنين والقرون التالية على ما هو معلوم .

ومن البديهي ان الدارسين والطابعين كان ينتظروهم خطر كبير ، وكانت الظروف التي وجدوا فيها مدعاة الى سقوطهم فيه . فعرضاً عن ان يجرأوا ، في الامور الطقسية ، الى الكتب المارونية القديمة التي اراها البطاركة آل رزي

(٢) في الدبس ثم ص ٢٨٦

(٤) في الدبس ثم ص ٢٩٧

(١) في الدبس ثم ص ٢٥٦

(٣) في الدبس ثم ص ٢١٣

(٥) في الدبس ثم ص ٢٥١

(٦) اخر مقالاتنا في الشرق . غرغز - ايلول ، ١٩٣٤ ، ص ٢٥٦

لغصاد البابا ، وشهد هؤلاء باختلافهما البين عن كتب اليعاقبة ، كان لهم من تأتئهم العلوم على ايدي الغربيين ، واضطلاعهم بالطقوس الغربية ، وقيامهم بالعمل تحت اشرف اصحاب السلطة الرومانية ، ما جعلهم يدخلون في طقسنا عناصر كثيرة وهامة ، وخصوصاً في خدمة الاسرار ، من الطقس اللاتيني . فهم ، اذا كانوا قد جردوا بعض الطقوس من العناصر اليعقوبية ، فانهم قد ادخلوا فيها عناصر لاتينية مكان اليعقوبية . وقد اخطأوا بذلك خطأ جسيماً .

حاشا لنا ان نبغض الطقس الروماني حقاً ، او ننحض قدره ، فله شرفه وروعته وجلاله وجماله . فضلاً عن ان المسيحيين الذين يعرونه ، ويؤثرون واجباتهم لله تعالى على نظريته ، يلبثون مئات الملايين عدداً . فاستدراج الموارنة الى اتباعه ، وقليل عددهم ، لا يزيده شيئاً ، كما ان استقلالهم عنه لا يضره . وبالعكس لو تم الامر الاول ، لفقدت الكنيسة الجامعة طقماً قديماً جليلاً ، تمتد اصوله ، مثل سائر الطقوس ، الى القرون الاولى وحتى الازمنة الرسولية ؛ ولحزنت البيعة صوتاً يرتفع الى الله ، منضماً الى الاصوات الاخرى التي تتألف منها هذه التسبحة الكاثوليكية العديمة النظير بتعداد انعامها ، ودقة ايقاعها ، وبديع توازنها ، هذه التسبحة المنسوجة على منوال التسبحة السابوية الابدية ، التي ينشدها امام العرش و امام الحمل « جم غفير من كل امة وقبيلة وشعب ولسان »^{١١}

وقد اعلن الكرسي الرسولي المقدس مراراً عديدة ، وبصور شتى خاصة وعامة ، حافلة وبسيطة ، اعتباره للطقوس الشرقية ، واحترامه لها ؛ وشدد الاوامر بالمحافظة عليها . لكن ذلك كان بعد الزمن الذي نحن فيه .

ففي هذا الزمن وفيما سبقه من الازمنة ، كانت الافكار في رومية منصرفة الى تقييد الموارنة ، خاصة في خدمة الاسرار ، بوجوب استخدامهم من الطقس اللاتيني ما يستتونه صور الاسرار ، واقتنائهم بعادات الكنيسة الرومانية . وآثار ذلك واضحة جلية في برآت الاحبار الاعظمين : من زخيا الثالث سنة

١٢١٥^{١)} ، فلارن العشر سنة ١٥١٥^{٢)} ، الى غرينوريوس الثالث عشر سنة ١٥٧٧^{٣)} .

ونظن ان اول من قام بين الموارنة بفتح الى الطقس اللاتيني ويدعو الى اتباعه ، عملاً بنص البرأت الحبرية ، بل غيرة منه تجاوزت منطوق هذه البرأت ، كان جبرائيل بن القلاعي اللخذي الذي انضم الى رهبانية القديس فرنسيس سنة ١٢٧١ ، وعاد الى لبنان سنة ١٢٩٤ ، وسم كاهناً سنة ١٢٩٦ ، واقام بقبس في رهبانيته . ثم سم اسقفاً مارونياً على قبرس سنة ١٥٠٧ ، وتوفي هناك سنة ١٥١٦^{٤)} .

فهذا جعل دأبه حث الموارنة على التمسك بالكرسي الروماني كاجدادهم . وختيل له ان من موجبات هذا التمسك اتباع الطقس اللاتيني . ومن مؤلفاته كتاب في التاموس البيبي نجد نسخة منه بين المخطوطات العربية في المكتبة القاتيكانية ، عددها ٦٣٩ ، وتاريخها سنة ١٥٧٤^{٥)} . وفي مكتبة دير الكرم مخطوط هو مجموعة قوانين ، اهم اجزائه كتاب التاموس لابن العسال . ومن جملة محتوياته « شرح مختصر من تاموس البيعة عن البيع لتدمات^{٦)} الكنيية المقدسة » . وقد كتب هذا الجزء . « يوسف بن داود قسيس من كرمدي سنة ١٦٠٨ للسيح في رومية » . ولا يبعد ان يكون هذا الجزء نسخة من كتاب التاموس البيبي لابن القلاعي . فهو يتكلم عن القديس ، فالهاد ، فالتثيت ، فالشحة ، فالرسامة^{٧)} . ويذكر لكل من هذه الاسرار شرح رقبته اللاتينية ، ويورد له الصورة اللاتينية بالحرف .

ودونك ما يقوله في الهاد . « الصورة الجوهرة . . . انا بعدك فلاناً بسم

-
- (١) ديس ٢٢١ ، ص ٢٢١
 (٢) ديس ٢٥٧ ، ص ٢٥٧
 (٣) ديس ٢١٤ ، ص ٢١٤
 (٤) ديس ٢١٠-٢١٢ ، ص ٢١٢
 (٥) الاب ديب في كتابه السابق ذكره ؛ ص ١٤٢
 (٦) المراد بالتدمات هنا اسرار البيعة .
 (٧) لم يقن لنا الاطلاع على الاصل المحفوظ في دير الكرم ، بل على نسخة مأخوذة عنه . وفي هذه النسخة لا ذكر للزواج ولا للتوبة . ولا تدري هل هذا النص في الاصل نفسه .

الاب والابن والروح القدس امين . ولا يقول مثل الروم : يمسد فلان بسم الاب والابن والباقي، ولا مثل المشاكلة امل صحصه امل احدنا حصه حصه وحصصا (انا اعد حملاً في رعية المسيح) . ولا يزيد امين بين الكلام الجوهري ويطل الفعل ولا يخفي امين في الاخير . ولا يقول صملاً حسملاً حصصاً حصص (الحي للحياة حتى الابد) وليس يفعل المكتوب (يريد الصورة المسطورة امام الكاهن في الكتب آتذ) بل باطل يكون هو فعله . وبعد ذلك يشرح ما في رتبة العباد من نفع ، وتصليب ، وملح ، وريق الخ ، بما يدل جلياً على انها الرتبة اللاتينية .

وهكذا في « تقديم الثبات في الميرون من يد رئيس الكهنة » ، يشرح الرتبة اللاتينية ويورد صورتها . ومثله « عن دهن الزيت . . . قبل طلوع الروح من الجسد » يشرح رتبة اللاتين ويورد صورة المسحة عندهم . وكذلك يطابق كلامه في الرسامة رتب الطقس اللاتيني .

ينتج من كل ذلك ان لابن القلاعي اليد الاولى والطولي في ابدال الطقوس اللاتينية من المارونية في خدمة الاسرار . على ان دعوته ، في مولده هذا وفي سائر مصنفاته ، الى اتباع الطقس اللاتيني ، ما كانت قد لقيت اذناً صاغية ، ولو لم يكن لها من جانب الكرسي الرسولي المقدس تشجيع وترويج ، ولو لم يتم بين الموارنة انفسهم من يواصلها .

ان اعمال الكرسي الرسولي المقدس في هذا الصدد ، نجد اناسها في البرأت الخيرية التي سبقت الاشارة اليها ، وتفصيلها في الترانين التي عرضها قضاة الاب اليانو ، ثم الاب دنديني ، ورفاقها على الموارنة في المجامع التي عقدها بحضورهم البطاركة ميخائيل الرزي سنة ١٥٨٠ ، وشقيقه سركيس الرزي في ايلول سنة ١٥٩٦ ، وابن شقيقها يوسف الرزي في تشرين الآخر سنة ١٥٩٦ نفسها^{١١} . فهي تحم باتخاذ صورة العباد ، والحلة ، والمسحة الاخيرة ، والرسامة ، عن الطقس اللاتيني . ويفصل التثبيت عن العباد ، وتعيين الاسقف خادماً له

(١) راجعها في الدبس^{١٢} ، ص ٣٠١-٣١٠ ؛ وفي ذيل الجمع اللبناني ؛ ترجمة المتران

يوسف نجيم ، ص ١-١٢

دون الكاهن . وتحرم على الكهنة تبريك زيت المرضى المحفوظ للاسقف .
وترفض صور الاسرار اذا جاءت بصيغة الطلب . واشيا . مماثلة لهذه .

وفي هذه النصوص طبعت النروسة في رومية سنة ١٥٨٥ ، وفيها بعض صلوات مترجمة عن اللاتيني^{١١} . وكتاب القديس سنة ١٥٩٤ وفيه كلام التقديس مأخوذ عن اللاتيني . وفي المجمع الموما اليه ، الحج الاب دنديني على البطريرك يوسف الرزي ان يسقف برجس عميرة ، تلييد رومية ، ويكل اليه تأليف كتب نافعة ، منها كتاب الرتب لتوزيع الاسرار . وكانت حجة الاب دنديني ان عميرة قد عني بطبع كتاب القديس في رومية ، وان له من علمه وفضيلته ، وكذلك من شديد تمسكه بالكروسي الروماني ، ومن اخلاصه الخدمة له ، مما يؤتمله لان ينظم ، بواسطة هذا الكتاب وغيره ، عبادة الله في هذه البلدان « على موجب الطقس الحقيقي والكاثوليكي » . وقد آيد عميره استمداده هذا ، اذ اظهر رغبته الصريحة في قبول الدرجات المقدسة على يد المطران موسى الضبي ، تلييد رومية ، بحج عادة كتاب الخبريات الروماني^{١٢} . فتفقه البطريرك على اهدن ، بالرغم من الصعوبات التي اعترضته ، وعهد اليه بتأليف او ترتيب الكتب .

وقد عدنا الى الآثار المارونية المعروفة فنقتش عما عمله عميره ، ان في ايام اسقفته وان في ايام بطريركيته ، في جانب الطقوس ، فلم نجد شيئاً ، اللهم الا انه ساعد المطران سر كيس الرزي في طبع كتاب المزامير بالريانية في قزحيا سنة ١٦١٠^{١٣} .

وما لم يعمل عميره ، اتفه غيره . من تلاميذ رومية ، اقتداءً . بابن القلاعي . نذكر منهم طابعمي الكتب في رومية كالحوري يوحنا بن ايوب الحصري طابع النروسة ، والمطران اسحق الشدراوي ، والقس عبدالمسيح الطويل الحدي طابعمي الشحية المتوسطة المعروفة باليوسفية سنة ١٦٤٧ . وفي آخرها ملحق يحتوي على

(١) انظر درسا على كتاب الجنائز ، في كراس مطبوع في بيروت سنة ١٩٢٦

(٢) دنديني ، في عميبي ، تم ، ص ١٠٢ و ١٠٤ و ١٢٠ . بعد مقابلته بالاهل .

(٣) انظر مثاكا في هذا الكتاب في المشرق [٣٢] [١٩٣٤] ٢٢٦-٢٢٦

بعض رتب لتوزيع الاسرار ، وعلى بعض تبريكات وتكريسات ، وهو مترجم كله من اللاتيني . ونخص بالذكر الاب اليسوعي الماروني الاصل بطرس مبارك ، جامع كتاب الرتب الكهنوتية ، الذي طبع بعد موته سنة ١٧٥٢ ، متتملاً على خدمة الاسرار الالهية واشباهها مترجمة بالحرف عن اللاتينية . بحيث يصح ان نعتبر عمله محاولة واسعة وكاملة لادخال رتب الطقس اللاتيني في خدم توزيع الاسرار وما اليها ، عند الموارنة .

ومع هذه الآثار المطبوعة ، لا بأس بذكر بعض الرتب اللاتينية المترجمة الى السريانية . والمودعة في مخطوطات ترجع بتاريخها الى هذا العهد . من ذلك المخطوط الثانيكاني السرياني عدد ٢٣٠ ، الذي خط احد اجزائه ، سنة ١٥٩٥ ، ملكيزادق من حصن كيفا من بين النهرين ، والجزء الآخر يوسف الباني سنة ١٥٨٦ . فانه يحتوي ، بين هذين الجزئين ، على جزء آخر هو رتبة التثبيت اللاتينية منقولة الى السريانية^(١) .

وكذلك المخطوط السرياني الثانيكاني عدد ٣٠٠ ، الذي كتب في قزحيا الراهب سر كيس ، سنة ١٦٠١ . فانه يحفظ للاسقف ، دون الكاهن ، حتى ايلاء التثبيت^(٢) . ويورد بالسريانية رتبة العباد اللاتينية^(٣) .

وفي الحزارة البطريركية مخطوط سرياني تاريخه سنة ١٦٠٦ ، كتب المطران بطرس بن سايا الماقوري . في اوله رتبة تبريك ماء العباد يتبعها بد رتبة العباد وكالتها مفقودة . وبعده صورة الحل من الخطايا ، وصورة مسحة المرضى بعد رتبة التثبيت . وفي آخر ورقة منه ارشاد الى كيفية تبريك زواج الارامل . فكل هذا مأخوذ بالحرف من الرتب اللاتينية المماثلة ومنقول الى العربية .

وفي الحزارة نفسها مخطوط آخر عدده ٢٩٥ . كتب في قنوين سنة ١٦٥١ ، برسم المطران يوسف (الحصاراتي) بدير سيدة حرقا . فانه يشتمل على الخدم الحبرية من تثبيت وتكريسات وتبريكات مأخوذة بالحرف عن اللاتيني ، وعلى

(١) الساساني . لائحة المخطوطات السريانية الثانيكانية . مجلد ٢ ، ص ٥١٥

(٢) ذكره الاب ديب ثم ، ص ١٢٢ ، في الحاشية ٣

(٣) ديب ثم ، ص ١٠٨ ، في الحاشية ٢

رسامة الموتل والقارى وما بعده حتى الحوري ، وهي الشرطونية المارونية ادخلت عليها الصورة والمادة من الرتبة اللاتينية .

وعند حضرة البرديوط يوسف الرامي ، من فالوغا ، مخطوط تاريخه سنة ١٦٥٠ ، يحتوي على مجموعة فتاوى قانونية ولاهوتية ، كان للطران يقرب الرامي . ففي آخره صورة الحل من الخطايا ، وصورة الحل عند ساعة الموت ، وكتاتهما لاتينية محضة .

على ان ادخال هذه الطقوس والعادات اللاتينية منذ الموارنة لم يتم بدون مقاومة من جانبهم . ولنا دليل على هذه المقاومة ان الكرسي الرسولي المقدس ظل مدى قرون طويلة ، من زخيا الثالث الى لاون العاشر ، الى غرينغوريوس الثالث عشر ، وحتى المجمع الببائي في عهد مبارك الرابع عشر ، يعبل في سبيل اقرار الامور نفسها . بما يجوز لنا حتى القول ان هذه الامور لم يكن من السهل ادخالها في عادات الطائفة .

ويواقع الحال ترى البطريرك ميخائيل الرزي يكتب ، فيما كتبه دفاعاً عن نفسه : « ان غيرت عادة من عادات الكرسي الانطاكي فاكون مواخذاً امام الله والكرسي الرسولي »^(١) . وليس ما يمنع ان ترى في هذا التصريح اشارة الى ما نحن في صده من الامور الطقسية .

وهذا خلفه وشقيقه سر كيرس يتولاه النيط الشديد ، بحضرة الاب دنديني ، اذ يعرف بما نسبه البعض الى معتقدنا وطقنا ، ويرفض زمناً طويلاً عقد مجمع كان الاب دنديني يشرقه اليه ، خوفاً من تجديد مثل هذه التهم ؛ ولا يقبل اخيراً بمقده الا تزولاً عند الحاح الاب دنديني ، وبعد حصوله منه على التأمينات اللازمة^(٢) . وبالرغم من ذلك ، ترى الاب دنديني قليل الثقة بتنفيذ القوانين التي حتم بها المجمع ، وذلك بسبب التصبات التي كان البطريرك قد اظهرها ، وبسبب ما تحمته من ان الموارنة عامة لا ينظرون الى هذه القوانين كقواعد

(١) في الدبس تمّ ص ٢١١

(٢) دنديني في عشيتي تمّ ص ٢٨ و ٢٧ . والدبس تمّ ص ٢١٨

الليان والصل ، ومن ان البطريك نفسه كان يصعب عليه امر تنفيذها^(١) .
ولما توفي هذا البطريك وقام مكانه ابن شقيقه يوسف الرزي ، نرى هذا
الاخير ، بعد ان أقرّ قوانين المجمع السابق وزاد عليها ، يستدرك قائلاً : « ليس
الباش على تجديد هذه القوانين كونها لم تكن مريية . عندنا فيما سلف »^(٢) .
وهذا البطريك نفسه لاقى معارضة في سبيل استجابة الاب دنديني الى تسقيف
عيده . عليه ، على ظننا الضيف ، فيما أخذ به طابعو كتاب القداس في رومية ،
وعيره منهم ، من وضع كلام التقديس اللاتيني فيه مكان الماروني ؛ وفيما كانوا
يُحشونه من ميول عيره الرومانية ، فيما لو وكل اليه اعداد الكتب الطقية ،
على ما نزلت .

ونسمع صدًى عتيقاً لهذه المعارضة في حاشية كوشونية خطها بيده يوسف
الباني سنة ١٦٦٥ على مخطوط تاريخه سنة ١٥٠٦ ، اهداه الى مرهج بن نيرون ،
وهو محفوظ الآن في المكتبة - الكاثوليكية تحت عدد ١٨ . وهالك هذه الحاشية
بنصها وفضها كما نقرأها في لائحة المخطوطات السريانية للسماي : « فلما كان
تاريخ سنة ١٦٦٥ مسيحية ، وصل الى رومية يوسف الباني المياري ، وجاب
معه كتابين الشرطونية السريانية القديمة ، مع باقية الرتبة القديمة الذي ليس حدث
فيها لا زيادة ولا نقصان من معلمين بني مارون الذين اختاروا لهم الذكا والمعرفة
ازكى من اياتنا القدام . مار افرام السرياني ، ومار يعقوب الرهاوي ، ومار اسحق
ومار مارون وسائر اياتنا الشرقيين . فغيروا العاد القديم السرياني وتمسكوا
في عماد الافرنج وفي رسامة الافرنج . وزادوا على الشرطونية القديمة صورة
الافرنجية ، مقسمة منهم باللغة العربية ، لكنهم ما عرفوا بنسبها باللغة
السريانية . فلكن اذا كان شرطونيتنا القديمة ليس يحل فيها رسامة فسا احد
اذا قبل درجة الكهنوت ، ووضع اليد صار باطلاً الخ . . . »^(٣)

(١) دنديني في عشيته ، ص ٦٢

(٢) عشيته ، ص ١١٢ . وذيل المجمع اللبناني ، ص ١٩

(٣) لائحة السماي . مجلد ٢ ، ص ٢١٠

عمل الروميهي في سبيل الاصلاح

وفي هذه الاثناء ، انعم الله على الطائفة برجل خضه الخالق بمراتب سامية ، وحبته النعمة فضائل راسخة ، وقادته العناية الالهية الى ورد الممارف والعلوم من المدرسة المارونية برومية ، فصدر عنها ريان ، وعاد الى موطنه فكرس شخصه وذاته ، علمه وعمله ، قوله وفعله ، لسانه وقلبه ، ويوجيز البارة كل كيانه ، ما هو وما له ، للطائفة العزيزة : ذلك الرجل هو البطريرك العظيم اسطفان الدريهي (١٦٧٠ - ١٧٠٤) .^(١)

وكان من جل الامور التي انصرف اليها ، تنظيم الكتب الطقسية . ولما كان له من اشغاله ومشاغله المدينة ، وهو رئيس الطائفة ، ومن محنة الشديدة في تلك الاحقاب العصية ، ما لا يمكنه من القيام وحده بهذا العمل الشاق ، الذي يقتضي مدى طويلة ، واشخاصاً كثيرين ، فقد اتتلب لمساعدته وللعمل تحت تدويبه المطران بطرس مخلوف ، والمطران يوسف شمعون الحصري^(٢) . تزيد عليهما المطران يعقوب عواد الحصري^(٣) . وقد يكون منهم المطران يوسف مبارك^(٤) . وما عدا ذلك ، فقد حث هذا الاب المقبوط كثيرين على النسيج على منواله . فنشط جيرائيل حوا الحلبي ، بعد ذهابه الى رومية ، على طبع الكتب اللازمة للطائفة ؛ وحمل بعض الكهنة والاساقفة على استخراج قصص القديسين من السريانية الى العربية ؛ والتس من الكرسي المقدس طبع كتابي الاناجيل والرسائل في السريانية والعربية لاستخدام الكنائس ، قطبا في ايامه سنة ١٧٠٣ ؛ ووجه الى رومية ابراهيم النزيري ، وميخائيل المطوشي ، ليسما في تجهيز مطبعة لكتبتنا الطقسية^(٥) . مما يدل على انه كان شديد العناية باصلاح الطقس ، بولي

- (١) نتمد خاصة في ما نكتبه من المعلومات هنا ، على كتاب الثلث الرحمة المطران بطرس شلي : « ترجمة ايونا المقبوط اسطفانوس بطرس الدويجي بطريرك انطاكية » . بيروت ١٩١٣ .
 (٢) شلي ثم ، ص ٢٠٠ ، والاب ديب ثم ، ص ٦٠ .
 (٣) شلي ثم ، ص ١٥٨ ، والحاشية في ص ١٥٧ .
 (٤) شلي ثم ، ص ١٥٦ .
 (٥) شلي ثم ، ص ٢١٧ .

قطاً كبيراً من اوقاته واهتمامه .

وقد استعدّ الدريبي لهذا العمل منذ سني الدراسة في رومية . ذكر عنه البطريرك سمان عواد ، انه في ذلك الحين « ما كان يجد نصاً عن الموارنة الا وينسخه ، وانه ما كان يهدس الا بفحص عوائد كنيسة القديمة » . وقال في محل آخر انه ، بعد ارتقائه السدة البطريركية ، « اخذ يطوف في كل رعيته . . . ونقى كتبنا . . . وردّ كل عوائدنا القديمة ورتبها احسن ترتيب . وكان ارسلها سابقاً الى رومية لتطبع . . . ودرس كتب البيعة درساً بليغاً »^(١) . ولا شك في ان اقامته في حلب ، مدة سنتين سنوات قبل تسميته ، مكنته من الوصول الى معرفة طقوس الطوائف الشرقية منسقة ومنتجة ، فضلاً عن حالة طقوسنا الماروني في تلك المدينة .

اما الكتب الطقسية التي جمعها الدريبي ورتبها ، فقد جاء ذكرها في رسالة انقضا هو نفسه في اول ايار سنة ١٧٠١ ، الى الاب بطرس مبارك ، اجابته لطلبه منه ان يلخص له ترجمة حياته^(٢) ، وهي كتاب الشرطونية اي رسامات الكهنوت ونسخته الاصلية موجودة في الكرسي البطريركي ، ومنه نسخ عديدة في اماكن مختلفة ؛ — كتاب الصلوات وامتدادها : قص شعر الرهبان او تكريمهم ، ولم نعرف من ذكره بين المؤلفين ؛ — تكريس الكنائس وآتيها : ومنه نسخة في القاتيكانية من عهد الدريبي ، عددها ٣١٠^(٣) ، وعلى جلدهما لائحة محتوياتها بخط يده ؛ ومنه نسخة في بكركي في الكنيسة ؛ — كتاب الصلوات : ولا نظنه الشجيرة ، كما ظنّه البطريرك يولس سعد ، ومال المطران شبلي الى موافقته عليه ، بل كتاب التبريكات والصلوات التي يقوم بها الكاهن ، اذ ان الكتاب السابق يحوي التكريسات المحفوظة للحبر ؛ وهذه الصلوات تولّف جزءاً من المخطوط القاتيكاني عدد

(١) في شبلي ثم ، ص ١٦٨ . وفي الدبس ثم ، ٢٦٥ - ٢٦٦ و ٢٦٣

(٢) ذكرها الدبس بمرقيتها ، ثم ، ص ٢٦٣ - ٢٦٤ ، واستند اليها شبلي في تعداد

مولدات الدويبي ، ثم ، ص ١٦٦ - ٢٠٧

(٣) الاب ديب ثم ، ص ٦٢

٣١٢ الذي نُحِطَ في رومية سنة ١٧١٥^(١) ؛ ولم نثر على نسخة أخرى منها ، بالرغم من تفتيشنا الحثيث ؛ — كتاب نافورات القديس : ونسخه كثيرة ، منها واحدة من عهده في خزانة الكرسي البطريركي ؛ — كتاب اسرار البيعة : وقد ارتأى البطريرك بولس مسمد ، وواقفه المطران شبلي ، انه كتاب بخدمة الاسرار الالهية . ولا شك عندنا في ذلك . وزاد المطران شبلي قائلاً : « وهذا الكتاب لم نثر على نسخة كاملة له » . وقد نسب الاب ديب الى الدويهي الرتب المسطورة في المخطوط القاتيكاني عدد ٣١٢ السابق ذكره ، بعض تحفظ . ومن المؤكد ان رتبة الصناد التي نشرها العلامة يوسف لويس الصماني ، في مجمرته الطقسية ، في الحاشية ، منسوبة الى الدويهي^(٢) ، وكذلك رتبة الصناد التي نجدها في المخطوط البطريركي عدد ١٩٦ ، الذي كتبه المطران يعقوب عواد الحصري في قنوبين سنة ١٧٠٠ ، تحت نظر الدويهي ، تصح نسبتها اليه ؛ — كتاب المدعدان : وهو يحتوي على الرتب التي تقام في الاعياد ، اي المواسم السنوية ، كعريك الماء في الغطاس ورتبة الشحانين وما اشبه . وكان محفوظاً نسخة واحدة في الكرسي البطريركي ، منقولاً اليه من دير مار شليطا مقبس ؛ — كتاب الجنائز : وكان قد شرع في تنقيحه فلم ينجزه . وقد ذكر كل هذه الكتب المطران يوسف مبارك باختصار في آخر كتاب الشرطونية الذي خطه بيده ، قائلاً : « وتمب خصوصاً على كتاب الرسامات ، والتكريسات ، والتبريكات ، والصلوات ، ومائر الرتب التي تصير في طول السنة »^(٣) .

ولم يكتب الدويهي يجمع الرتب ، بل ألف شروحات وافية تضافية ، في معظمها واهمها ، ضمنها ثلاثة كتب : الاول في القديس الالهي ، والثاني في التكريسات ، اي الخدم الخيرية ، والثالث في الشرطونية ، اي الرسامة .

(١) الاب ديب تم ، ص ١٢

(٢) *Codex Liturgicus Ecclesiae Universae*, liv. II p. 310 sqq. et liv. III

p. 184 sqq.

(٣) في شبلي تم ، ص ٢٣٠

وقد اوردع هذه الكتب تفاسير الرتب ، وايضاح الرموز . وقرن الاعتبارات
الروحية التقوية بالابحاث العلمية من لاهوت ، وقانون ، وتاريخ ، وطقس .
وقابل بين طقوس المتيقة والجديدة ، وبين عادات الكنائس في الغرب والشرق .
فجاءت هذه التآليف آية في بابها ، وخصوصاً فيما يتعلق بالقداس الالهي^(١)
ومن شاء ان يتلص خطبة الدريبي في عمله ، عليه ان يفتش عنها في
حواشي هذه الشروح ، فلا يصعب عليه العثور عليها ، وخاصة اذا قرن ما يجده
فيها بما يعرفه من سائر اعماله في كتبه ومجموعاته الاخرى .

قلنا فيما سبق ان القرنين الخامس عشر والسادس عشر كانا مطبوعين ، في
لبنان الشمالي اقله ، بطابع اليعقوبية ، وان تلامذة المدرسة المارونية برومية كانوا
قد بدأوا ، منذ اواخر القرن السادس عشر ، يقاومون هذا التيار ، مستنجدين
بالطقس اللاتيني ، يترجمون بعض رتبته الى السريانية او العربية ، كما رأيت من
كلام الباني ، وكما صرح الدريبي نفسه في شرحه على تكريس الميرون ،
حيث قال : « ان العادة القديمة ما زالت داوية ، حتى قام تلاميذ المدرسة
الرومانية . ولكن هؤلاء استصعبوا الرتبة السريانية ونقاوا تكريتها الميرون من
اللغة اللاتينية الى العربية ليتعلمها الرؤساء . »^(٢)

فما يكون موقف الدريبي ، يا ترى ؟ افلا يجري على آثار من سلفوه من
تلاميذ المدرسة الرومانية ، وهو نابتمهم ؟ واذا عاد الى ما قبل عهد هذه
المدرسة ، ايكنه النجاة من شرك المخطوطات اليعقوبية التي كانت قد غمرت
الطائفة ، وخاصة في جنة بشراي ، وهو ابن الجية البار ؟

ان فضل الدريبي الاكبر ، وسبب مجده الاعلى ، انه فطن للامرين وتحذّر
من الخطرين ، وإن بتفاوت ظاهر . فلما قام ليشيد بناءه ، حاد عن ضخامة
الاسس اليعقوبية ، اقله الحديثة ، وارض عن زخرف البناءات الرومانية . فوضع

(١) شبل تم ، ص ٢٠٤ - ٢٠٧ . وقد نشر الاستاذ رشيد الشرتوني هذه التآليف في
المطبعة الكاثوليكية ببيروت : مائتا الانداس سنة ١٨٩٥ - ١٨٩٦ ، وشرح التكريسات
والشرطونية ممأ سنة ١٩٠٢ .

(٢) شرح التكريسات (طبعة الشرتوني) ص ٥٢

الاساس على صدور مارونية ، متينة ، لا شبهة فيها . فما هو يتجاوز المصادر المارونية التي نُحِطَ فيها سيما العهد اللاتيني واليعقوبي ، ويرجع الى ما قبل . وقد صرَّح بذلك في مقدمة كلامه على شرح التكريات حيث قال : « هذه الرتب التي تصرف بها رؤساء الكهنة ، اجتهدنا على جمعها وتحريرها . . . على موجب النسخات القديمة [التي غطت] منذ ثلاثماية سنة وازيد »^(١) . وكذلك في مقدمة كلامه على شرح الشرطونية ، يعتمد قبل كل شيء ، على نسخة البطريرك ارميا المنشئتي (١٢٠٦ - ١٢٣٩) ، وعلى نسخة أخرى كتبها مرتس لتاوس ، اسقف عرقا وعكار سنة ١٣١١ ، وعلى نسخة كتبت في الماقورة سنة ١٢٩٦ ، وعلى غيرها^(٢) . وقد ذكر في منائر الاقداس ، عند كلامه في صورة التقيس ، بعض المخطوطات التي استند اليها . فاذا منها كتاب التوافير الذي خطه حوشب بن اسطفان بن مسعود بن الحوري اسطفان بن الحوري شمعون من شوت^(٣) سنة ١٣٢٩^(٤) .

وقد كتب الدويهي نفسه ، سنة ١٦٧٤ ، الى مزهيج بن نيدون الباني ، ان هذه الكتب القديمة لا تزال موجودة في جبل لبنان ، باقية بينها ، كاملة «بلا مكر»^(٥) . ولا شك في انه يعني بها هذه المخطوطات التي تعود الى القرن الرابع عشر فاقبل . وكان الاب ذنديني قد اشار الى ذلك ، كما تقدمنا قلنا . ومن هذه الكتب ما لا يزال موجوداً ، لحسن الحظ ، حتى يومنا ، وان كان قليلاً ؛ على ان قيمته تزداد بنسبة قلته وندورته .

فاستناداً الى هذه الآثار المارونية القديمة ، قام الدويهي بقية كتبنا الطقسية من العناصر اللاتينية واليعقوبية التي خالطها .

(١) شرح التكريات (طبعة الشرتوني) ص ٢

(٢) شرح الشرطونية (طبعة الشرتوني) ص ٨٦

(٣) مكذا في النسخة المطبوعة . اما المكتوبة بخط يد المؤلف والمحفوطة في خزانه سيادة المطران عياده خوري ، النائب البطريركي العام ، فاسم البلدة فيها شتا .

(٤) منائر الاقداس (طبعة الشرتوني) الجزء الثاني ، ص ٢٠٠-٢٠١ .

(٥) شلي ، عن مزهيج نيدون . ثم ، ص ٢٠٤

وكان موقفه من مقررات السلطة الرومانية في جانب الاصلاح الطقسي موقفاً شريفاً . فهذا العلامة وقف حياته على الدفاع عن بني قومه ومثله ، ووضع في ذلك كتباً كثيرة ، جاء فيها على دحض الاقتراءات والتهم التي وجهها الى الموارنة عن قصد او عن جهول بعض الكتبة . ومن جملة الأمور التي اقرها ان ما كان يرعاه الموارنة في طقوسهم مما لا يتفق مع عوائد الغربيين ، ليس مما يمكن شجبه او نبذه . واتي بالبراهين والحجج الدامغة على ان ذلك من مخلفات الكنيسة الاولى . واثبت انه شرع وحق وصواب . وكان يقصد بذلك كثيرين من كتاب الغرب ، ومنهم بعض تصاد الكرسى الرسولي المقدس .

على انه قد احترم غاية الاحترام ارشادات الاجبار الاعظمين ، واطاع اوامرهم ، في ضد الاصلاح الطقسي ، فعدل بموجبها اموراً وأوها خلاً وشراً ، وهي ليست بالخلل ولا بالشواذ الا بالنسبة الى الطقس اللاتيني ، والطقس اللاتيني لم يكن قط قاعدة للكنيسة الكاثوليكية في طقوسها المختلفة المدينة . وقد قرأنا له في ذلك عبارة تدل على مبلغ انصياعه لرغبات رومية ، نوردها دلالة على شرف عواطفه ، وتد قالها في معرض كلامه عن وجوب تكريس الميرون من الزيت والبلسم دون غيرها ، وهي : « طوعاً لصاحب السلطان الاعلى . »^١

فصلاً بهذا المبدأ السامي ، قبل الدويهي بمجمل ما طلبه الاجبار الاعظمون في برآتهم ، وبعض ما قرره الموارنة في مجامعهم المتأخرة ، ووضعه موضع العمل في ترتيب الكتب الطقسية . ولولا جثنا نعدده ونبيته هنا ، لطلال بنا المجال .

فيكفينا القول انه نبذ كلها كان رتبة لاتينية كاملة . وعدل تعديلاً طفيفاً بعض رتبنا ، تطبيقاً لها على مقررات السلطة الرومانية . ولا ندرى لماذا احتفظ في العمل المنسوب اليه ببعض صلوات مترجمة من اللاتينية ، مثل احدى صلوات رتبة الاكليل ، وغيرها . فادماج هذه في الطقس ايس من باب ما قاله ونقلناه عنه : « طوعاً لصاحب السلطان الاعلى . »^٢

(١) شرح التكريبات (طبعة الشرتوني) ص ٥٢

(٢) نريد هنا رتبة الاكليل المدرجة في المخطوط الفاتيكانية عدد ٣١٢ . ولا كان تاريخه سنة ١٢٤٥ اي بعد وفاة الدويهي بزمان ، فقد تكون هذه الرتبة مزيداً فيها . وعليه

وقد ابقى الدويبي كذلك في الكتب التي نظمها آثاراً عديدة ، بل رتباً كاملة ، من الطقس اليعقوبي . فهل اجرى ذلك يا ترى بسبب اندماج هذه العناصر اليعقوبية في طقسنا ، ورسوخها في عراندنا ، بحيث اصبحت يصعب تمييزها من العناصر المارونية ، وخاصة عند عدم الوصول الى الرقب المازونية الاصلية المماثلة لها ؟ قلنا ان فكرة استقلال الطقس الماروني عن اليعقوبي استقلالاً تاماً ، على نحو ما نبطه هنا ، هي فكرة جديدة . فقبل الدويبي وبمده ، كان العلماء الموارنة وغيرهم ، على ما بيننا سابقاً ، يعتقدون ان للموارنة وللعاقة طقساً واحداً وكتباً واحدة . ولا غرو ان الدويبي كان من هذا الرأي . وبه الكفاية في سبب ابتناؤه في طقسنا على كثير من الطقس اليعقوبي ، حال كونه قد قضى تقريباً على ما كان فيه من الطقس اللاتيني . على اننا نظن ، بالرغم من ذلك ، ان الدويبي ، اذا كان لم يرَ جلياً الفرق التام بين طقس الموارنة القدماء وطقوس جيرانهم من سائر السريان ، فهو قد تبينه بدون شك . وقد لا تحاور موثقائه من ادلة على ذلك ، لا مجال لرددها هنا .

اما الروح التي استرشد بها الدويبي في عمله ، فقد عبر عنها في مقدمة كلامه على شرح التكريات بهذه الكلمة : « لتلا نعيد بشيء عما تسلّم ، من الرسل ابواق الروح القدس ، آباؤنا ومعلمونا ، الذين سلفوا قبلنا بكل طهارة وحكمة على هذا الكرسي الانطاكي العظيم »^١ . ونعماً هذه الروح ا

على اننا يظهر لنا ان احترامه العميق للسلف الطاهر الحكيم قد تفوق لديه على ما قد يقتضيه احياناً التقد المجرد . فقد قبل كل ما خاله تراثاً عنهم فجمعه على اعلاته ، بدون ان يعالجه مقابلة ومعارضة ، وتشدّياً وتصحيحاً . فضم الى واحد كل ما وجده مبعثراً ، بدون ما نظر اليه من حيث التلاحم والملازمة . فلم يخلُ عمله ، او اقله العمل المنسوب اليه ، كما في خدم الاسرار ، من الجمع بين طقوس مختلفة في الرتبة الواحدة ، او من ايراد ربتين مختلفتي الطقس

لا يمكن البت في هذا الامر الا بعد الاطلاع على نسخة الدويبي الاصلية . وهذا ما نجد البحث عنه .

لخدمة السر الواحد^١ ، او اختصار بعض صلوات هي من كيان الرتبة^٢ ، او تغيير موضوع صلوات اخرى^٣ .

لكنه لم يجزم عند الضرورة عن التماس من هذا القيد . ويلتذ لنا ان نسمع ما قاله في صدد رتبة تكريس الميرون ، التي اضطر الى نظنها في ذلك جديد . فلما رأى ان قبول الرتبة القديمة على علاتها اصبح غير ممكن ، « وان كان ما يمكن اننا نذمها »^٤ ، وكان لا يوافق تلاميذ رومية على ابدالهم الرتبة اللاتينية منها ، كما رأيت ، صرح بما يلي : « فالتزمتنا نقف عليها (الرتبة) وننظف الذي هو ضروري لتكريس الميرون ، ولتحسين الرتبة على زبي البلاد . والباقي تركناه ، كما يرى القارى الذي يتأمل النسختين ، ان لا صار تغيير في التكريس ولا في الرتبة »^٥ . فلنا بهذا القول خطة عامة . على اننا لا يمكننا التأكيد ان الدويهي قد عمل كل العمل بهذه الخطة ، حتى في رتبة تكريس الميرون ، او اتبعها في تنظيم سائر الرتب . فهذا يقتضي له الامام بعلمه كله مجملًا ومفصلاً . ولكن يمكن القول ان هذه الخطة كانت نصب عينيه . جاء في مقال للاب ابراهيم حروفش ابن الدويهي علق مفكرة بخط يده على كتاب المعددان ، الذي كان محفوظاً في مار شليطا مقبس ونقل الى خزانة الكرسي البطريركي ، في رتبة تبريك الماء يوم عيد الدنح « يختصر بها هذه الرتبة الطويلة جداً »^٦

واذا كان الدويهي لم يعمل بهذه الخطة حتى النهاية ، كما نظن ونزجح ،

(١) مثل ذلك رتبة الاكليز في المخطوط الفاتيكانى ٣١٢ . فهي مزيج غريب من الطقس الماروني والبيروتى واللاتينى .

(٢) في رتبة الباد في المخطوط نفسه .

(٣) في رتبة التمدل والمحة الاخيرة في المخطوط الفاتيكانى عدد ٣١٥ ومخطوط

بكركي .

(٤) شرح التكريسات ، تم ، ص ٤٨

(٥) تم . ص ٥٢

(٦) المشرق ٦١ [١٩٠٣] ٥١٦ . وقد راجعنا لائحة المخطوطات في الكرسي البطريركي

فلم نجد فيها ذكراً لهذا الكتاب . . .

بسبب ظروف زمانه الخاصة ، فلا نكير انه وضع هذه الكلمات القاعده التي
 يحسن بل يجب اتباعها في تهذيب الطقس وتنظيمه في هذا الزمن الحاضر .
 ولائل ما كان اثر هذا الاصلاح الطقسي في الطائفة ؟ ان الدويهي اذاع
 عمله بمنشور على الطائفة وحتم برعايته وحده في خدمة الاسرار^(١) . وبقيننا ان
 الاساقفة وافقوه على ذلك ولم تبد منهم معارضة . ولا نظن ان الخلاف الذي
 نشب بينه وبين بعضهم ، كان من اسبابه هذا الاصلاح الطقسي^(٢) . ذلك ان
 المطران يوسف مبارك ، الذي كان بدون ريب من جملة القائلين عليه بل
 زعيمهم ، يطرى عمل الدويهي في الطقوس بهذا الكلام : « من حين جلس
 هذا الاب النويل القديس على كرسي البطريركية ، لاجل زيادة غيرته الالهية ،
 فحضر اكثر كتب طائفتنا ، وصححها وردّها الى نص الرسل الاطهار والآباء
 الابرار »^(٣)

والكرسي الرسولي المقدس ، بعد ترجمة كتب الدويهي الى اللاتينية ،
 وافق عليها ، وعمد الى طبعها على نفقته^(٤) ، وفضّلها على الكتب التي اعدّها فيما
 بعد المطران يوسف اسطفان^(٥) .

وصرح آباء المجمع اللبناني ، المتعقد سنة ١٧٣٦ ، بوجود اعتماد كتاب
 الرسامات « الذي هذبه منذ عهد قريب البطريرك اسطفان الطيب الذكر »^(٦) .
 وكذلك آباء المجمع المتعقد سنة ١٧٥٥ ، برئاسة البطريرك سمان عواد ، امروا
 في البند الخامس ، ان « تحفظ في الطائفة كلها رتبة كنانية واحدة وهي التي
 جمعها الملك الرحمة اسطفانوس البطريرك الانطاكي ، وهي السداوجة الآن في
 طائفتنا »^(٧) . على ان المجمع الذي عقبه السنة التالية في بعاماتا ، برئاسة البطريرك

(١) الاب ديب ثم ، ص ١١ و ١١٩

(٢) انظر في هذا الخلاف شبلي ثم ، ص ٦٥ و ١٦٦

(٣) في شبلي ثم ، ص ٢٢٠

(٤) الاب ديب ثم ، ص ٩١ و ١٧٢ وغيرهما .

(٥) الاب ديب ثم ، ص ٩٦ فأبد و ١١٩

(٦) المجمع اللبناني ١٤: ٢ ، ص ٥٤ . ترجمة نجم ص ٢٢٨

(٧) المشرق (٧) [١٩٠٤] [٨٠٤-٨٠٥]

طوبيا الحازن ، قد رجح فيه الآباء عن ذلك بقولهم في البند الثاني عشر: « لتكون في الطائفة كلها رتبة كثنائية واحدة ، ولا يُتعمل الا كتاب القديس المطبوع ، وبقية الرتب الكثنائية التي نمتي الآن باصلاحها . »^{١١}

يظننا الواقع الى القول ان عمل الدويهي ، الذي استنكف مجمع البطريرك طوبيا الحازن ذكره ، قد دُفن معه لسره الخبز . ولم يطبع منه حتى اليوم جزء واحد ، اللهم الا بعض صلوات وتبريكات ، وضعت ملحقة في آخر كتاب القديس المطبوع في رومية سنة ١٧١٥-١٧١٦ . قال الطابع في المقدمة : « وختناه ببعض تبريكات مفيدة ، قد وجدناها في كتاب رتبنا باللغة السرمائية ، المجموع بعناية الاب النيل والمعلم الجليل مار اسطفانوس الدويهي البطريرك الانطاكي . . . ونقلناها الى اللغة العربية ليطلع كل كاهن على معانيها . » وهذه التبريكات ادجت كذلك باللغة العربية في كتاب الرتب الكهنوتية المطبوع في رومية سنة ١٧٥٢ . وما عدا ذلك ، وذلك قليل وقليل جداً ، لا شيء . ، على ما نعلم . وما عداه مما طبع لخدمة الاسرار خاصة ، وهو المرعي الآن في الطائفة ، لا أثر فيه لسبل الدويهي ، بل هو ترجمة الرتب اللاتينية . وما عداه مما لم يطبع بعد ، كالشرطونية وغيرها ، لا يراعى فيه عمل الدويهي كما هو .

ان العقل يقف حائراً امام هذا الامر الواقع . ولا ندري الى اي الاسباب نسبنا الى جنوح قورنا الى الطقس اللاتيني ، لتأثرهم بالثقافة الغربية في رومية ؛ ام هناك اسباب اخرى محلية مكانية ، قافية ، يؤمننا ان نسيها ، ونستكف ان نتبسط فيها ؟ والدليل اليها ما رأيناه من التناقض بين مجمع البطريرك سمعان عراد ، ابن الشمال ، الذي قضى باتباع الرتب التي جمعا الدويهي الشمالي ؛ ومجمع البطريرك طوبيا الحازن ، ابن كسروان ، الذي حتم بانتظار الرتب التي يُعنى باصلاحها . وآباء المجمعين هم هم . والبرهنة بين المجمعين لا تبلغ

النتيجة

المجمع اللبناني

لم يرد في المجمع اللبناني باب خاص في الطقس الماروني وما يحتاج اليه من اصلاح . فالآباء المجتمعون قد تشوا ، بالاجال ، على آثار الدويهي في شأن المحافظة على طقسنا القديم والتمسك به وعدم مزجه بآخر . اما في الانصياع لرغبات الكرسي الرسولي في شأن الطقوس ، فتراهم قد تمدوا حدود الدويهي ، فاجبوا التقيد بالصور اللاتينية في خدمة الاسرار . وقد يكون هذا ما حال دون قبولهم كتب الطقس التي كان الدويهي قد جهها ، ودون اقرارهم اباها ، بالرغم من سنوح القرصة . فوكالوا الى السيد البطريرك وجمعه امر النظر في الكتب الطقسية وطبعا يجب الاصول .

يضع الآباء هنا وهناك مبادئ غاية في وجوب التمسك بالطقس القديم . من ذلك قولهم ، عند الكلام عن الانعام المغاض على كهنة اللاتين بتلاوة ثلاثة قدايس في عيد الميلاد ، ان هذا الانعام لا يشمل كهنتنا : « لا لاننا نحرم عادة جرت عليها الكنيسة الرومانية المقدسة . . . ولكننا زبد المحافظة على طقسنا القديم . »^(١) فزعم المبدأ رعاية طقسنا القديم ، وحبذا بالحري التشبي عليه .

ويؤكد الآباء . هذا المبدأ وينزونه بكلامهم في العماد حيث يقولون : « يأمر هذا المجمع المقدس حتماً بان لا يُجرى في خدمة هذا السرّ الا على طقسياته المرعية في الكنيسة الشرقية ، مما رسد آباؤنا وعهدوا به الينا »^(٢) . وفي محل آخر ، في جانب القدايس يوم خميس الاسرار والسبت العظيم ، يوجبون رعاية عادة القدايس الواحد ، لانطباقها على الطقس القديم^(٣) .

ولا ريب في ان الآباء كانوا يرغبون في اعادة الطقس سالماً من كل دخيل ، ويعملون على تجديد رونقه القديم ، بدليل ما يصرحون به ، فيما

(١) المجمع اللبناني : ٢ : ١٢ و ١٧ في ترجمة نجم ، ص ٢٢٥

(٢) المجمع اللبناني : ٢ : ٢ : ٢ في نجم ، ص ٤٠

(٣) ٢ : ١٢ : ١٧ في نجم ، ص ٢٢٧

يلامس الطقوس الشرقية ، كاثوليكية وغير كاثوليكية ، حيث يقولون ، في باب الاوغارستيا ومادتها : « يجب الاحتراز بما يختلف به عنا بعض طوائف المسيحيين ، القاطنين نحن فيما بينهم ، في الاصطلاحات والمعادن الذميمة والاضاليل . »^(١) وهذا موقفهم تجاه الطقس اللاتيني نفسه ، على ما رأيت ، ليس على سبيل تحريمه ونبذ ، ولكن محافظة على طقسنا القديم .

على انه كان لا مناص للآباء من قبول بعض طقوس رومانية ، كان الاحبار الاعظمون في برآتهم ، والتصاد الرسوليون في المجامع التي عقدت بحضورهم ، قد عملوا على ادخالها في الكنيسة المارونية . وخصوصاً ان السلطة الرومانية ، التي وضعت رسوم المجمع اللبثاني وقوانينه ، بواسطة قاصدها السيد يوسف السطاني ، كانت لا تزال متمسكة بها فجرى الآباء في قبولها على آثار من سلفوا .

من ذلك ، في ايلاء سر التثبيت ، يحكم الآباء : « موافقة للطقس اللاتيني ، ألا يُخدم سر التثبيت الا الاسقف »^(٢) ، « ورغبة في الجري قدر المستطاع على طقس الكنيسة الرومانية ، يأمر المجمع بان يقتصر في دهن طالب التثبيت في جيبوته لا غير ، ويسح في دهن طالب الماد في صدره وبين كتفيه فقط ، خصوصاً اذا كان بالنسبة ، مع المدول عن المسحات التي كانت تجري سابقاً في النم والاذنين والقدمين واليدين وفي عامة البدن » ، ان في المردية وان في التثبيت^(٣) . وهو رسم كذلك ان يفصل التثبيت عن المردية ، ولا يعجل منعه للاطفال قبل اتمامهم السنة السادسة^(٤) .

ومنه في سر الزواج ، يأمر المجمع الاساقفة والكهنة « ان يجروا بالتدقيق على عادة الكنيسة الرومانية المقدسة في عد الموانع ورعايتها »^(٥) ، ولا يجرم

(١) رقم ٣ : ١٢ : ٧ اوله في نجم ، ص ١٦٥

(٢) رقم ٣ : ١٢ : ١٥ في نجم ، ص ٤٨

(٣) رقم ٢ : ٤ : ٣ في نجم ، ص ٥٤

(٤) رقم ٣ : ٨ : ٣ في نجم ، ص ٥٧

(٥) رقم ٣ : ١١ : ٧ في نجم ، ص ١١٨

« الزواج الثاني ولا الثالث . . . عملاً بالكنيسة الرومانية المقدسة . . . من العادة والتعليم. »^(١)

ومنه في سرّ الاوخراستيا ، في منارة المؤمنين تحت الشكل الواحد او الشكلين ، « بأمر المجمع ويحتمّ حتماً باتباع رسوم الكنيسة الرومانية المقدسة »^(٢) .
ويحكمم بالاحتفال بعيد جسد الرب ، « ارتياعاً الى العمل بنشور البابا اوربانوس الرابع »^(٣) . ويحفظ اقامة رسم الكاس او القداس السابق تقديسه ، ليوم الجمعة من سبّة الآلام فقط ، « وفقاً لما هو جارٍ في الكنيسة الرومانية المقدسة . »^(٤)
وهذا الامر الاخير لم يوجبه الاحبار الاعظمون ، لكن « الاتمدين من آباؤنا » قد عملوه^(٥) . وما عمله المتقدمون من آباؤنا في جانب رسم الكاس ، عمله آباء المجمع في جانب أمور أخرى . من ذلك انهم ، بالرغم من معرفتهم بوجود صورة طلبية للحلّ من الخطايا في كسبا الطقية ، فع ذلك يأمرّون الكهنة جميعاً « ان لا يستعملوا صورة الالهة المعبّر عنها بصيغة الانشاء : « انا اهلك النخ »^(٦) . وكذلك عند كلامهم عن مسحة المرضى ، فانهم يفضلون بجلا . « الحبري على عادة الكنيسة الرومانية المقدسة » ، وان كانوا لا يجرّمون الصورة الشرقية^(٧) ؛ ويعلنون للجميع « انه لا يلزم في اتمام هذا السرّ ضرورة سوى حضور كاهن واحد »^(٨) . ثم انهم يضعون ازاا الصورة الشرقية في ايللا . الثيت ، الصورة اللاتينية . تاركين الحيار في استعمال احدهما^(٩) . كما انهم اباحوا المهاد ، اما بالنفس بموجب الطقس القديم ، واما بالكسب بموجب العادة

(١) تمّ ٢ : ١١ : ٢١ اخره . في نجم ، ص ١٥٢ و ١٥٣

(٢) تمّ ٢ : ١٢ : ٢١ في نجم ، ص ١٩٩

(٣) تمّ ٢ : ١٢ : ٢٦ في نجم ، ص ٢٠٥

(٤) تمّ ٢ : ١٣ : ١٧ اخره . في نجم ، ص ٢٢٧

(٥) تمّ ٢ : ١٣ : ١٧ اخره . في نجم ، ص ٢٢٧

(٦) تمّ ٢ : ٤ : ٣ في نجم ، ص ٦٢

(٧) تمّ ٢ : ٨ : ٥ في نجم ، ص ١٠١

(٨) تمّ ٢ : ٨ : ٨ في نجم ، ص ١٠٢

(٩) تمّ ٢ : ٣ : ٥ في نجم ، ص ٥٤

الرومانية^(١).

على ان من حسنات المجمع أنه سمح للكهننة ، عند الضرورة القصوى ، « ان يباركوا زيت المرضى في خدمة سر المذبة الاخيرة... بموجب المادة القديمة في طقسنا السرياني »^(٢) ؛ وابعاح للكهننة ، « وان تحتم عليهم استعمال الملابس الكهنوتية على طريقة اللاتين... ان يتعلموا بعض اشياء مما يشمر بطقسنا القديم »^(٣).

هذا في شأن الطقس اللاتيني ، ولم يذكر المجمع شيئاً ، ولا من قبيل التلميح ، عن العلاقة بين الطقسين الماروني واليعقوبي. ولا بدع ، فقد رأيت فيما سر ان السمعاني وافق من سلفه من علماء الموارنة على ان لاطنائتين طقساً واحداً وكتباً واحدة. فلم يحظر اذاً بياله ، ولا ييال الآباء المجتمعين بحضوره ، ان للموارنة طقساً خاصاً مارونياً ، مستقلاً عن طقس اليعاقبة وسائر السريان ، يجب توحيه ورعايته ، سليماً من كل خليط ومزيج ودخيل ، لاثنيّاً كان او يعقوبياً.

تلخص من ذلك ومثله ان آباء المجمع لم يثاؤوا البت النهائي في جملة امور طقسية ، ولا في مجمل الطقس ومجموعه. اما اصحوية الامر ، بسبب ان الماديات القديمة لا يسهل اقتلاعها او تحويرها ، وان الكتب الطقسية ، الجاري العمل بموجبها ، كانت تساعد طبعاً على ابقاء القديم على قدمه ؛ واما لتعذر القيام بهذا الاصلاح الطقسي على واضي المجمع والقائمين به ، كما يتضح لمن يدقق في درس رسومه وقوانينه.

ولهذا زاهم ، اذا اشاروا اشارة الى ما يمكن اعتماده في الحاضر ، يهتمون حتماً بما يجب توحيه في المستقبل في طبع الكتب الطقسية. فقد اوجب المجمع « على السيد البطريرك السامي الاحترام وعلى الاساقفة نمائاً ان يختاروا رجالاً اكفاء ، يتقدرون الرتب البيعة ويضمونها كلها الى مجموع واحد ، اي كتاب

(١) تم ٢ : ٢ : ٢ في نجم ، ص ٤١

(٢) تم ٢ : ٢ : ٨ في نجم ، ص ٢٩

(٣) تم ٢ : ٢ : ١٢ : ٨ في نجم ، ص ٢١٢

القداس وكتاب الخبريات وكتاب الفرض الالهي . . . وما اشبه ذلك فيشتها السيد البطريك والاساقفة ، فنُشر . طبعه . وتوزع على الكنائس والاديار والابرشيات «^١ . وقد اولوا السيد البطريك في سبيل ذلك سلطة « الاستنار بالولاية على الطقوس البيمية في بطريركيته ، بحيث يسوغ له ان يفحص . . . ويهذب ، ويدخل فرضاً جديداً او ينسخ قديماً . . . حتى ان له ان يزيد او ينقص في الطقس ، ولكن على شرط ان يبقى الجوهر - المأ ، وان يتم ذلك براى الاساقفة واهل العلم . »^٢

وما ذكره هنا اجمالاً اعادوه وكرروه لادن تكلسوا عن كل كتاب بجزءه في بابه . فارجوا على السيد البطريك « ان يعنى ، وفاء بواجباته الرعائية ، بتماهد كتابي الطقبات والخبريات ، وتثبيتها وطبعمها وتوزيعها ، فيجري الكهنة والاساقفة جميعاً على الطريقة الواحدة نفسها في خدمة الاسرار . »^٣ وقد جاء في محلات أخرى ، ذكر كتاب الطقوس المثبت^٤ ، والمعزوم على وشك طبعه^٥ ؛ وكتاب القداس الذي يكون السيد البطريك السامي الاحترام قد وقف عليه واثبته . . . حتى اذا طُبع . . . يشر في الخورنيات «^٦ ؛ وكتاب الخبريات اي الشرطونية ، على ان يعتد الكتاب الذي هذبته منذ عهد قريب البطريك اسطفان . . . والمنتظر نشره بالطبع عام قليل^٧ ؛ وكتاب الاقسام الذي يجب على السيد البطريك ان يتصفحه ويجزّه ويشته فيضاف الى كتاب الطقوس «^٨ ؛ وكتاب السنكار الذي يتعتم نقده « وحذف الاقاصيص المصنوعة والاساطير الملققة منه ، والاقتصار فيه على تراجم القديسين

- (١) تم ١ : ٥ : ٢ في نجم ، ص ٢٢
- (٢) تم ٣ : ٢ : ٦ : ٢ بد ٢٢ . في نجم ، ص ٤٢٥
- (٣) تم ٢ : ١ : ٢ : ١ اخره . في نجم ، ص ٢٠٩
- (٤) تم ٢ : ٢ : ٢ : ٢ في نجم ، ص ٤٠
- (٥) تم ٢ : ٢ : ١٥ : ٢ في نجم ، ص ٤٩
- (٦) تم ٢ : ١٣ : ٥ : ٢ في نجم ، ص ٢٠٩
- (٧) تم ٣ : ١٤ : ٥ : ٥ اخره . في نجم ، ص ٢٢٨
- (٨) تم ٣ : ٢ : ٦ : ٢ اخره . في نجم ، ص ٢٢٠

المحققين وسيرهم المثبتة. »^{١)}

فالمجمع ، وان كان قد حتم بعض أمور قيا يلامر علاقتنا بالطقس اللاتيني ، لم يتم باعبا. الاصلاح الطقسي ، على ما ترى ، ولكنه ترك هذا الامر للسيد البطريرك ، واولاه سلطة واسعة جداً فيه ، مشروطاً عليه ان يتم عمله « برأي الاساقفة واهل العلم » .

وكاننا نودّ لو تمّ هذا العمل ، كله او جلّه على الاقل ، وقد مضى على المجمع اللبناني المقدس قرنان كاملان . فالاصلاح الطقسي الذي اوجبه المجمع اللبناني لم يُنفذ ، على شدة الاضطرار اليه ، في كتاب واحد من الكتب الطقسية المذكورة . فنحن ما لم نزل منخطوطاً ، كالتشرطونية والسكسار والاقام وبعض اجزاء القرض الالهي والكتاب المقدس . ومنها ما طبع ، ولكن على غير مبادرته المجمع من خطط وادرس به من روح ، كتاب الطقوس مجزئيه : خدمة الاسرار والمعدعان . ومنها ، وهو المطبوع قبل انعقاد المجمع ، ما أعيد طبعه على علاته ، مثل كتاب القداس وما اليه ، وبعض اجزاء القرض الالهي والجنائز .

الشواذ الخلية

لم يكفِ الطقس الماروني القديم ما اصابه من طوارئ الحدثن ، وبماقبة السريان ، وتلامذة الرومان ، فناه الله بما يمكن تسميته بالشواذ الخلية . من المعروف ان من جملة ما التأم لاجله المجمع اللبناني المقدس ، الاهتمام بجالة الطقس الماروني في حلب ، وخاصة عود الموارنة في هذه المدينة الى استعمال اللغة السريانية في الطقوس . وقد ذكر ذلك الاب فروماج اليسوعي في رسالته عن المجمع الى رئيسه العام قائلاً : « ان موارنة حلب . . . عدلوا عن الترتيل في الكنائس الالباربية . . . ونسخوا العادة القديمة ان يتلى القرض الالهي وسائر الصلوات بالسريانية . »^{٢)}

(١) تمّ ١٢:٥٥:١ في نجم ، ص ٢٢

(٢) *Lettres édifiantes*, éd. Paris, 1870. II, p. 201 sq. وكذلك في مجموعة

وبما يذكره المؤرخون ان اللغة العربية قد احتلت الكنائس المارونية في حلب ، « حتى شاع عن المطران جرمانوس انه ابطل استعمال اللغة السريانية في كنيسته بالكلية »^(١) . وهذا المطران جرمانوس هو العلامة الشهيد جرمانوس فرحات مطران حلب (١٧٢٥-١٧٣٢) . واليه انفذ البطريرك يعقوب عواد والاساقفة ورقة حرم سنة ١٧٢٨ لانه تمذى حقوقه الطقسية فكرس الميرون^(٢) . ومن الثابت ان المطران عبد الله قرألي ، احد معاصري فرحات ووطنيه واخوته في الرهبانية والاسقفية ، واحد آباء المجمع اللبناني المقدس ، قد ألف بالعربية ما ندعوه « الافراميات » . فاخذت تنتشر في الطائفة ، مستعملة في القداس الالهى .

فوقف المجمع اللبناني المقدس في وجه هذا التيار الحلبي العربي . ووضع الحدود في كيفية استعمال اللغة العربية في الطقوس^(٣) . وبعد انقراض المجمع بايام ، افاد الاب فروماج الموما اليه ، ان الحلبيين ، بعد المجمع اللبناني ، ابطلوا الترتيل بالعربية في كنائسهم ، وعادوا الى استعمال السريانية ، بحسب العادة القديمة^(٤) . وكذلك مجمع البطريرك سيمان عواد سنة ١٧٥٥ ، ومجمع خلفه البطريرك طربيا الحازن سنة ١٧٥٦ ، « اذا فاهتنا » بالقطع والمزمورات التي رتبها المرحوم جرمانوس مطران حلب على الاوزان الموسيقية » ، وحصر استعمالها « في القداس الاحتفالي للسيد البطريرك والمطارنة وروسا . الرهبان »^(٥) .

لكن هذه التدابير والاحتياطات لم تحل دون استعمال اللغة العربية في الطقوس . ولو وقف الامر عند هذا الحد لكان . فان البعض قد اخذوا ، في

المجامع الحديثة المطبوعة في فيربورج سنة ١٨٧٦ والمروفة باسم *Collectio Lacensis* في ذيل المجمع اللبناني ، عمود ٤٨٦ .

(١) تاريخ الرهبانية اللبنانية المارونية . للاب بيل . مجلد اول . مصر ١٩٣٢ ، ص ١٦٨ . من رسالة نائب الرهبانية العام الى رئيسه العام .

(٢) ثم ، ص ١٦٨ و١٦١

(٣) المجمع اللبناني ١٦٣٥ : ١١ في نجم ، ص ٢١٤

(٤) ذيل المجمع اللبناني في المجموعة الآتية الذكر . عمود ٤٨٨

(٥) الشرق (٧) [١٩٥٦] ٨٠٤ و٨١٠

بعد ، يوافقون ، في حلب ولبنان ، عبادات تقوية باللغة العربية رأساً ، وبدأوا يقيمون هذه العبادات في الكنائس ، اسوةً بالرتب والخدم الطقسية القديمة ، كزجاج الميلاد وزجاج القربان ، وزياحات الايقونات المختلفة ، وما اشبه ذلك ؛ فضلاً عن تأليف افرايميات جديدة وطلبات عربية يُحْتَم بها الفرض الالهي عية الاعياد الكبيرة .

المكتبة المطبوعة

لستأ نترخى الكلام هنا في كل كتاب طقسي بالتفصيل . وانما غايتنا ان نلقي نظرة عامة على الكتب الطقسية المطبوعة^(١) فترى هل هي تمثل الطقس الماروني ضحياً ، ام ممزوجةً بعناصر اجنبية .: يعقوبية ، او زومانية ، او عربية حلبية ؛ وهل تنمى الطابعون ، بعد الدويهي والمجمع اللبناني ، على المبادئ والحناظ التي وضعها هذا البطريرك العظيم الشأن ، وآباء المجمع المحترمون .

ازل ما طبعت كتبنا الطقسية ، كان ذلك في رومية العظمى ، على ايدي اساقفة اورشليمه مارونيين ، وتحت اشراف الكرسي الرسولي المقدس وتدييره . فطبع في اواخر القرن السادس عشر كتاب الجناز المعروف بالنويسة سنة ١٥٨٥ ، فكتاب القديس الالهي سنة ١٥٩٢ - ١٥٩٤ ، يليه كتاب الشماس في خدمة القديس سنة ١٥٩٦ . وكان الطبع غايةً في الاتقان والاحكام

الا انه لما كان التأثير يعقوبي لم يزل قوياً بعد ، وكان الطابعون حديثي العهد يمثل هذه الامور ، فقد تنسب الى كتاب القديس اجزاء كثيرة وهامة من الطقوس يعقوبي ، بل نوافير كاملة ، حافلة باسماء ائمة اليعاقبة . فجااء الكتاب مزيجاً من طقوسنا القديم ومن طقسهم . وجاورت نوافيرهم ، بل تقدمت في الترتيب نافورتنا القديمة المنسوبة الى الرسل والمبدؤة بلفظة هذه ، حتى يصح ، في رأينا الضيف ، نسبة هذا الكتاب الى اليعاقبة اكثر منها الى الموارنة . وفوق ذلك قد ابدل في النافورة الكلام الجوهري ، اي .كلام التديس ، من

(١) ذكر تاريخ طبع الكتب الطقسية عند الموارنة بكل تفصيل حضرة الاب ديب في

وولنه المذكور سابقاً : *Etude sur la Liturgie Maronite. Paris, 1919.*

مثله في النافورة الرومانية .

ولما وصل هذا الكتاب الى الطائفة ، احتجّ البطريرك سركيس الرزي على وضعه وطبعه بهذه الصورة ، وخصوصاً على ابدال كلام التقديس ، وحرم استجماله في الطائفة ، ثم اذن به بعدئذٍ تزولاً عند الحاج الكرسي الرسولي المقدس ، بواسطة قاصده الاب دنديني . وقد لاحظت بدون ريب ان المجمع اللبناني لا يقرّ هذا الكتاب ، ذلك لانه يجب اتباع كتاب القديس « الذي يكون السيد البطريرك السامي الاحترام قد وقف عليه واثبتته . »^(١) وقد اعيد طبع الكتاب في رومية سنة ١٧١٦ ، بعد ان حذفوا منه لسوء الحظ نافورتنا القديّة الخاصة بنا ، او بالحري بعد ان حولوها الى نافورة لرسم الكاس ، فتأمل . وعلى هذا النحو اعيد طبعه اربع مرات في دير مار انطونيوس قزحيا بلبنان ، في السنوات ١٨١٦ ، ١٨٣٨ ، ١٨٥٥ ، ١٨٧٢ . ومرتين في بيروت سنة ١٨٨٨ و ١٩٠٨ . وفي القرن السابع عشر طُبعت كتب الفرض الالهي اكثرها : اي الشحيم الكبير سنة ١٦٢٤ ، والشحيم المتوسطة المعروفة باليوسفية سنة ١٦٤٦ ، والفنقيط الشتري سنة ١٦٥٦ ، والصيفي سنة ١٦٦٦ . ولم يتسنّ لنا درس هذه الكتب وفروضها درساً خاصاً بعد ، ولكن اذا ثبت انها لم يداخلها شيء من الطمس اللاتيني ، فلا ندرى مبلغ اتصالها بالطقس اليمقولي . وقد اعيد طبع الكتاب الاول في بيروت سنة ١٨٩٠ ، والثاني في رومية سنة ١٧١٣ ، وفي لبنان ، اي في قزحيا وغيره ، مراراً عديدة ، بدون ما تنوير .

وفي اوائل القرن الثامن عشر ، طُبعت الاتاجيل في رومية سنة ١٧٠٣ ، مرزعة قرآنتٍ تُتلى في اقامة الطقوس . ثم سنة ١٧٣١ طُبعت الشحيم الصغيرة في رومية ، واعدت طبعها مراراً عديدة في رومية حتى سنة ١٨٦٣ ، ثم في لبنان ، من سنة ١٨٧٦ فما بعد .

وفي منتصف القرن الثامن عشر ، بعد الدويهي وعقيب المجمع اللبناني ، حدث حادث جليل في تاريخ طقوسنا ، لم يابه محدثوه لعمل الدويهي ولم يكثرثوا لمقررات المجمع اللبناني . فقد طبع في رومية العظمى ، سنة ١٧٥٢ ، « كتاب

(١) المجمع اللبناني ١٣:٥٠ في نجم ، ص ٢٠٩

الرتب الكهنوتية ، وهو يشتمل « في اوله » على خدمة الاسرار المقدسة وصلوات وتبريكات مختلفة ؛ وفي آخره ، على « رتبة جنازات الموتي ودفنهم » . وقد نظمه اجد الآباء اليسوعيين وهو من ابناء الطائفة ومن تلامذة المدرسة المارونية ، على ما يذكر في المقدمة ؛ ولا شك عندنا في انه الاب بطرس مبارك . وهو كتاب جليل ، ينم عن سعة معارف الجامع وعن مقدرته في الطقوس ، ويتضمن كل ما يحتاج اليه الكاهن خادماً الرعية للقيام بواجبات وظيفته ، وذلك بنظام جميل ورتيب دقيق .

على ان ما يوسف نه ان رتب خدمة الاسرار قد اخذت بالحرف من الطقس اللاتيني ؛ ما عدا بعض اجزاء رتبة الزواج ، فقد أخذت من كتب السريان النخاقية ؛ وما عدا الصلوات والتبريكات فحفظها من مجموعة التدريسي . فيحق لنا القول اذا ان واضح هذا الكتاب . قد ادخل الطقس اللاتيني في الكنيسة المارونية بصورة تكاد تكون كاملة شاملة . ولم يكتب بوضعه الى جانب رتبنا القديمة ، بل ابدل ذلك الطقس اللاتيني من طقنا القديم . ولم يدرجه الى السريانية ، بل نقله رأساً الى العربية ؛ وبها ادرجه في كتابه ، على ما في ذلك من مخالفة للمجمع اللبناني المقدس .

زمناً يدعو الى الدهشة ان هذا الميل قد تم بعد المجمع اللبناني بتليل من الزمان حياً وواياً كان العاملون ، فلا شك في ان السعاني الكبير ، واضح المجمع اللبناني ، وهو آنذاك في اوج عزه ومجده في رومية ، لا يقر شي بدونه فيما يلامس الكنائس الشرقية ، وبالطبع الكنيسة المارونية ، لا شك في انه قد علم بهذا الكتاب ، وقد يتكون له يد في اتمامه . افهذا اذا ما كان يفتخيه السعاني من الاصلاح الطلبي ا امن المحافظة على القديم ، « على الطقوس التي رخصها آباؤنا وعهدوا بها الينا » ، كما جاء في المجمع اللبناني ا

اما رؤساء الطائفة ، اي بطريركها ومطارنةا ، فلا تخالمم علوا بهذا الكتاب قبل طبعه . ودليلنا على ذلك ان جامع الكتاب وضع في اوله رسالة الى « قدس السيد البطريرك الانطاكي . . . رسائر مطارين واساقفة الملة المارونية » ، يشرح بها ما اتاه بكتابه ، ومقدمات اياه « خدمة نافعة وضرورية لجماعة

الكليروس « . ثم يرجو منهم » ان يقبلوا الكتاب ويأمنوا كلاً من كهنتهم بان يقتنيه ويعمل عليه في لوازم دعوته . وما كان اغناؤه عن كل ذلك ، لو كان الكتاب مطبوعاً بطلم هولاء الرزساء ، وبالبحري بوافقهم :

ولهذا السبب احدث كتاب الرتب الكهنوتية ضجة عظيمة في الطائفة ، نسع صداها في المجمعين المتعدين سنة ١٧٥٥ و ١٧٥٦^(١) . فالآباء ، وان لم يسوا هذا الكتاب تصريحاً ، فهم يقصدون ضمناً تحريمه ومنع استعماله في الطائفة ، حيث يقولون : « لا يتعمل في جناز الاموات الا التويسة المطبوعة . ولتحتفظ في الطائفة كلها رتبة كنانسية واحدة ، وهي التي جمعها المثلث الرحمة اسطفانوس البطريرك الانطاكي ، وهي الدارجة الآن في طائفتنا . »^(٢) وبهذين الامرين شجبت للجنازات ولرتب الاسرار المسطورة في الكتاب الجديد ، وكذلك حيث يقولون في المجمع اللاحق : « فلتكن في الطائفة كلها رتبة كنانسية واحدة . ولا يتعمل الا كتاب القديس المطرور وبقيّة الرتب الكنانسية التي نعتي الآن باصلاحها . »^(٣)

هذا ما نقرأه . اما ما جرى في الواقع فكان بالعكس . فقد عمّ في الطائفة استعمال الرتب اللاتينية بواسطة هذا الكتاب ، وكان قد بدأ من قبل يتغلغل في نواحيها شيئاً فشيئاً بواسطة بعض المخطوطات ، ثم بواسطة الشجبة المتوسطة ، المحتوية في ذيلها على بعض خدم الاسرار منقولة عن الطقس اللاتيني . ولا ادلّ على ذلك ممّا حدث فيما بعد ، في اوائل القرن التاسع عشر . فقد اعدّ المطران يوسف اسطفان ، مطران قورش ، كتاباً جديداً للرتب الكنانسية ، يحتوي معاً على الرتب السنوية اي المعددان وعلى رتب خدمة الاسرار الالهية : جمع الاولى من الكتب الطقسية وازاد اليها بعض عبادات تقوية ، لا صفة طقسية لها ؛ واخذ الثانية من كتاب الرتب الكهنوتية السابق ذكره ، بدون ان يحدث او يحدد فيها شيئاً . فارسل البطريرك يوحنا الحلو هذه الرتب كلها

(١) المشرق (٧) [١٨٠٤] ٨٠٤ و ٨١٠

(٢) تم ، مجمع سنة ١٥٥٥ ، القانون الخامس .

(٣) تم ، مجمع سنة ١٥٥٦ ، القانون الثاني عشر .

الى رومية . والح خلفه البطريرك يوسف الحيشي بشأنها . فدرست في الدواوين الرومانية ، بالمقابلة مع مجموعة الدويبي . فانار درسها اعتراضات حجة . ولكن البطريرك عاد . فارسل عريضة ، وقمها معه المطارنة . وبها يقبلون بالكتاب على علاقته ، بعد قسمته الى جزئين ، ويرجون الاسراع . في طبعه . فتم ذلك وطبع الجزء الاول منه اي المعدعان سنة ١٨٣٦ ، وهو الذي اثار جمل الاعتراضات ؛ وقد اعيد طبعه في بيروت سنة ١٩٠٦ . وطبع الجزء الاخر ، اي رتب خدمة الاسرار ، سنة ١٨٤٠ ؛ وقد اعيد طبعه في بيروت سنة ١٨٩٧^(١) .

وهذان الكتابان يجري استعمالهما لليوم في الطائفة . . وقد رأينا ما فيها من عشر برسم المجمع اللبناني المقدس ومن مخالفة لسمل الدويبي . وقد ذكر شيئاً من ذلك العلامة الكردينال انجلو ماي في تقريره بشأن هذا الكتاب مجزئته : من ذلك « انه لم يتم . برأي الاساقفة واهل العلم ، ولم تدرج السريانية فيه قبالة الكرشونية ، وهو يبعد جداً عن مجموعة الدويبي ، التي كان مجمع نشر الايمان قد صدقها واثبتها ، وهو كله تقريباً بالعربية بعكس كتاب الدويبي ، فضلاً عن ان فيه اموراً عديدة مأخوذة من المؤلفات الروحية او التقوية العصرية الغربية^(٢) .
 اما في شأن ما اخذه الكتاب ، في جزئه الثاني ، من كتاب خدمة الاسرار الروماني ، فالعلامة ماي لا يعترض . الا على طريقة اخذه . ودونك كلامه :
 « وحيث يتبع (الكتاب الماروني) كتاب خدمة الاسرار الروماني ، فهو ليس مضبوطاً بالتام ، لكنه بالحري بحرف .^(٣) وزاد الكرادلة المكلفون تصحيح كتب الكنيسة الشرقية ، فاظهروا مجلاء مراقبتهم على دخول هذه العناصر اللاتينية في الطقس الماروني ، حيث قالوا : « لا مانع من ان يتخذ من الكتاب الروماني تلك الاجزاء التي تعتبر ملائمة ، وخصوصاً فيما يلاحظ الاسرار او رتبة اخرى قديمة هامة ، على ان يتم ذلك . بترجمة مضبوطة وبفطنة .^(٤) »
 اطلنا الكلام في كتاب الرتب الكهنوتية ووليدته كتاب المطران يوسف

(١) راجع كل ذلك في كتاب الاب ديب المذكور سابقاً ، ص ١٤ فابعد .

(٢) ذكر ذلك الاب ديب ثم ، ص ١٧

(٣) الاب ديب ثم ، ص ١٧ (٤) الاب ديب ثم ، ص ١٨

اسطفان بجزئه الثاني ، لاننا نرى انه نفذ تلك الحطة التي بدأ بوضعها ابن القلاعي ، وجاراه فيها معظم تلاميذ رومية ، وهي الجري على عادات الكنيسة الرومانية وطقوسها ، فيما يلامس خدمة الاسرار المقدسة .

اما فروض الجنائز في هذا الكتاب ، فقد سرت في الطائفة ، حتى اعاد طبعها المطران الدبس سنة ١٨٨٤ و ١٨٩٨ ، فعول بالاجمال على النويسة القديمة ، المطبوعة في رومية سنة ١٥٨٥ . وقد ضمّ الدبس الى كتاب الجنائز الافراميات والطلبات الربية التي اتينا على ذكرها بكلمة . وطبع كذلك سنة ١٨٨٤ ترجمة الحيات الاكثر استعمالاً . وكانت مطبعة قزحيا قد اصدرت سنة ١٨٤١ كتاب القراءات التي تتلى من الكتاب المقدس في الفرض الالهي ، ما عدا الاناجيل . فهذه كان قد سبق طبعا في رومية سنة ١٧٠٣ . بقي كتاب الرسائل البولسية التي تتلى في القداس الالهي ، فهذه طبعت مراراً كثيرة في قزحيا وحلب وبيروت ؛ وكتاب الحاش ، فقد طبع في جونية سنة ١٩٠٢ . نكتفي بذكر هذه الكتب وطبعها ذكراً بسيطاً . فهي لا شأن لها كبيراً في ما نتوخاه من درسنا الحاضر .

الطقس الماروني القديم

ان الكتب الطقسية المطبوعة ، يمكن وضعها في ثلاثة ابواب : كتب خدمة القداس ، وقد قلنا انها اصبحت اقرب الى الطقس اليعقوبي منها الى الماروني ؛ وكتب خدمة الاسرار ، وهي لاتينية صرفة تقريباً ؛ وكتب الفرض الالهي ، ولم ندرسها درساً متفيضاً فنعرف هل هي مارونية بحتة ، ام مزيج من الفروض المارونية واليعقوبية . اما قراءات الكتاب المقدس ، فلم تطبع كذلك طبعة قانونية ، بل طبع قسم منها بالربية ، دون الرياتية ، وهذا مخالف للاصول . واهم من ذلك ان الربية ليست في الغالب مترجمة بدقة وضبط عن الرياتية المعروفة بالبسيطة . ثم ان من الكتب الطقسية ما لا يزال مخطوطاً ، على ما ذكرنا .

فن الواجب ، والحالة هذه ، الرجوع الى الطقس القديم . وهذا امر يفرضه

البرُّ بالواجب تجاه السلف الكريم والائمة الاقدمين ؛ ويجنبه احياء ايجاد هذه الكنيحة المارونية ، وقد تحالفت العوائل المختلفة على طسها ؛ ويدفع اليه ويشجع عليه ما قام مؤخرًا ويقوم في الغرب من مثل هذه النهضة المباركة . فليس الا ان تمقد النية على القيام بهذه المهمة ، مما كلفت من مشاق ، وتجتمع القوى لتذليل ما يقوم في سبيل تحقيتها من عقبات ، وتتخذ الاحتياطات لاجباط ما قد يشر في وجهها من عراقيل .

ولا شك في ان للوارنة طقاً خاصاً بهم ، يستقلون به عن سواهم . وهو اذا سهل على كل مطلع فصله عن الطقوس الغربية ، فلا يتعذر على الباحث الجير تميزه من طقس السريان المجاورين .

وتوصلاً الى ذلك ، يجب اطراح كل المستجدات التي دخلت الطقس ، وسيناهها الشواذ الحلية ، وما نُسج على منوذا في لبنان . فكل ما وضع في الاصل بالعربية ليس من الطقس الماروني في شيء .

ثم يجب الاحتراز شديداً من بكل المخطوطات التي عقبَت تأسيس المدرسة المارونية برومية سنة ١٥٨٤ ، ومن المطبوعات التي اخذت عنها . فهي جرد متأثرة بالطقس اللاتيني ، بل بعضها واكثرها متحوّلة اليه ، حتى يصح اعتبارها كتباً طقسية لاتينية ، مكتوبة فقط باللغة السربانية او العربية .

واخيراً يجب الايقان أن المخطوطات التي كتبت من اوائل القرن الخامس عشر فما بعد ، وخصوصاً في جبة بسراي ، حيث كان النفوذ اليه قوبي ساندًا ، ليست في الغالب سوى مخطوطات يعقوبية ، سواء أكتبت لاستعمال اليعاقبة ، ام كتبت دساً للاستعمال في كنائس الموارنة . فلا تصح اذا نسبتها الى الطقس الماروني . على ان ما كتب في تلك الحقبة ، حتى في الجبة ، قد يكون بعضه مارونياً اقله في بعض اجزائه ، فيسكن الاستفادة منه .

اما كتب الطقس الماروني القديم فعلياً ان نفقش عنها قبل هذه الازمنة ، وبعبداً عن هذه الامكنة . فكل كتاب خط في القرن الرابع عشر فما قبل ، وقام الدليل على نسبته الى الموارنة ؛ وكل كتاب خط في تلك الحقبة او بعدها في نواحي البترون وجبيل ، وخصوصاً في وادي ايليج ، حيث اقام بطاركتنا

حتى اوائل القرن الخامس عشر ، هو كتاب ماروني صحيح .

لا نكير ان هذه الكتب نادرة جداً . على ان قسماً منها لا يزال محفوظاً في خزانة الكرسي البطريركي وفي سواها من خزائن الكتب في لبنان ؛ وقد يفضي التفتيش الى العثور فيها على غيره . وقسم منها تحتوي عليه خزائن الكتب في رومية وباريس ولندن وغيرها في الغرب . واذا كنا لا نعرف كل هذه الكتب ، فلأنّ الاشارة لم تتخذ حتى الآن هذا الاتجاه الذي اتخذناه . بل كان الكتبة والعلماء يكتبون بما يرددونه من ان الموارنة واليعاقبة ، وان اختلفوا في المعتقد ، فهم متفقون في العادات والطقوس .

على ان ما نعرفه حتى الآن من هذه الكتب ، على قلتها ، يعكسنا من القول انها تبعد عن الكتب اليعقوبية ، ليس فقط في صلواتها ، بل كذلك في سياق هذه الصلوات وتنظيمها وترتيبها فيها . وهي على قلتها تشمل على رتب طقسنا القديم ، او اقله على معظمها واهمها ، كالقداس الالهي وخدمة الاسرار والفروض . اما ماهية هذه الرتب ومكوناتها وبميزاتها ، والى اية طائفة طقسية تعود ، فذلك امر لا سييل الآن الى التبسط فيها

وقد ادى البطريرك الدريبي ، على ما ذكرنا ، خدمة جلّى ، اذ ابقى لنا في مجموعته شواهد ناطقة بحتويات هذه الكتب . لانه قد عول على الكتب المارونية حين عمد الى تهذيب الطقس وترتيبه . فاستند الى الكتب السابقة لزمانه « بثلاثماية سنة وازيد » اي العائدة الى ما قبل القرن الخامس عشر . فباغ لنا ان نعتبر مجموعته كنسخة عن هذه الكتب القديمة ، اللهم الا بعض تحويرات ، اقتضاها راجب « الطرع لصاحب السلطان الاعلى » ، في الجري على بعض عادات وطقوس لاتيية ، ارجاءها الزمان من طقوس جيراننا وضيوفنا اليعاقبة ، او اثرها هو نفسه رغبة في تحجين الطقوس ، على ما ذكر ونقلنا عنه .

فاتقنا لآثار هذا الرجل الماروني ، يجب ان نعد الى هذه الكتب القديمة ، فنستخلص منها طقسنا الاصلي . وعلاً يبداه ، يجب ان « نقطف ما هو ضروري » قيام الطقوس ، « وتحسين الرتبة على زي البلاد » ، بحسب مقتضيات الازمنة والامكنة ، ولكن على شرط ان لا « يصير تغيير في [الطقس] ولا في الرتبة . »